

الجزء الأول

دراسة في

مقاصد القرآن .. كيف نفهم القرآن

اللهم إنا نسألك أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم
وحقاً . . ومقبولاً عندك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمين

الفصل الأول

المقصد الأصلي للقرآن
التوحيد

﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ، ثُمَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾

[هود ١-٢]

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

[الزمر ١-٢]

«كل عبادة في القرآن فهي توحيد» حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه.

«بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كلياً:

إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة، به داعية إليه».

الامام ابن القيم رحمه الله

مقدمة

نبين في هذا الفصل أن المقصد الأصلي الذي دار عليه التنزيل هو توحيد رب العالمين ..
وأوضحنا فيه:

- أن معنى العبادة في القرآن ليس مجرد الأداء بل معناها إفراد الله تعالى بها .. ذلك لأن الخصومة كانت في هذا بين الرسل وأقوامهم .. أما مجرد الأداء فقد كان يقع من المشركين في بعض الأحيان وبعض الأحوال، ولم يُقبل منهم.

- ثم بينا قيمة التوحيد .. ثم القيمة السلبية والخطرة للشرك.

- ثم بينا أن الانحراف ولو بدا - ظاهراً - بسيطاً وكان مرتبطاً بالأصل العظيم من الانحراف عن التوحيد بالشرك - فإنه يأخذ بُعداً هاماً في كتاب الله تعالى، ويُبين بطلانه، وبطلان القاعدة التي يستند إليها من صرف حق الله الخالص إلى غيره ..

- وفي هذا استعرضنا على وجه الإجمال سورة الأعراف .. وذلك لبيان كيفية تناول تصحيح انحراف ما مرتبط بالتوحيد والشرك .. وكيف حُشدت له حقائق وقواعد هامة لمعالجة هذا الانحراف وأضرابه وإصلاح الحياة كلها .. كل هذا من خلال معالجة المناسبة الحاضرة وهي الطواف بالبيت عراة ونسبة الأمر به والرضا عنه لله تعالى .. ولا يستطال هذا لأنه بيان لحقيقة هذا الكتاب العزيز وبناء القرآن كله على أمر التوحيد كقرار أول يتخذه المسلم ليكون مسلماً ولتتحدد على أساسه طريقة حياته.

- ثم نقلنا ما ذكره الأستاذ سيد قطب في مقدمة سورة الأنعام - كأول سورة مكية في ترتيب المصحف - وذلك لبيان المجالات التي عرض فيها القرآن حقيقة التوحيد وبطلان الشرك؛ سواء كانت هذه المجالات في مظاهر الكون والخلق .. أو التاريخ البشري .. أو أغوار النفس ومخاوفها ومطامعها وفطرتها التي فُطرت عليها وترجع إليها عند الكروب .. أو في مصارع المكذبين .. أو في مشاهد الآخرة عند ظهور الحقائق للجميع ..

- وما تناولته سورة الأعراف والأنعام هي طريقة القرآن المكّي عموماً، وإنما استعرضناها ليكونا مثالاً لمعرفة النسق المتبع.

- ثم بينا أن القرآن المدني لما انتقل إلى الحديث عن الأحكام وتفصيلاتها وتفصيل نظام الدولة في الإسلام وتفصيل النواحي السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها .. لم يترك التوحيد لينتقل إلى غيره من فروع الأحكام بل انتقل به وخاطب باسمه وحضض به وشرط قبول العمل باستيفائه .. ولهذا استعرضنا على وجه الإجمال سورة البقرة لبيان وجه الربط بين فروع الأحكام وبين الأصل العظيم من التوحيد وترك الشرك، وتبعنا هذه القاعدة من خلال الآيات: «أن القرآن يخاطبنا في جميع مناحي الحياة من تشريعات ومن خُلق ومن صفات ولم يترك التوحيد ليخاطبنا في هذا بل خاطبنا في كل هذه الأمور

مع التوحيد؛ فيذكر به وبمفرداته أو بعضها ويدكر بالميثاق عليه وبالوصية به ثم يربط به الأحكام فينادى باسمه ويجعله شرطاً للخطاب ومحضاً على قبوله وعلى القيام بالأمر الشرعي».

- ثم استعرضنا سورة النساء بطريقة أكثر إجمالاً لبيان ثلاث حقائق:

أولاً: تنوع الخطاب في شتى مجالات الحياة

ثانياً: الأمر بالتوحيد وبمفرداته والنص عليه وتجريم الخلل فيه

ثالثاً: ربط تفصيل الشرائع به

- وفي هذا كله شرحنا كلمة ابن القيم في المدارج: «بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»^(١).

- ثم ذكرنا أن الاهتمام بالتوحيد هام جداً لأن الإسلام ليس مجرد ديانة أو نحلة بالمصطلح المعاصر بمعنى أنه ديانة لا علاقة لها بالنظام الخلقي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي بل هو مشرب حضاري ومنهج حياة، وقد فصلنا شرح هذه النقطة.

- ثم كانت نظرة على واقع المسلمين لإدراك أهمية هذا الطرح، وأن النفق المظلم الذي تعيشه الأمة ناتج من الخلل في فهم حقيقة التوحيد أو الخلل في القيام بها.. وذلك لإدراك أن هذا المبحث ليس نظرياً بل هو أساس الإصلاح المفترض لواقعنا المعاصر، والله المستعان.

ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

المقصد العام: التوحيد

يقول ابن القيم رحمه الله: «.. بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه ..

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نفيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»^(١).

رسالة القرآن الأصلية هي توحيد الله تعالى:

١ - فما أنزل إلا ليعبد الله سبحانه وتعالى وحده ..

فيُفرد سبحانه بحقوقه الخالصة من الطاعة والحب والتعظيم.

وهذه هي زبدة الرسالة وخلاصتها .. ومن أجلها خلق الخلق ..

وهذا واضح من هذه الآيات: قال تعالى: ﴿الرَّكَئِبُ أُحْكِمَتْ أَيْنُهُ﴾، يقول ابن كثير: في ألفاظها ﴿ثُمَّ

فَصَلَّتْ﴾ قال: في معانيها ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١).

ثم نص على المقصود من إحكام القرآن ثم تفصيله من أنه من أجل غاية واحدة فقال: ﴿الْأَتَقِبْدُوا لِلَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾^(٢)، ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني: من شرككم به ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، بالتوحيد فيما تستقبلون من أعماركم ﴿يَمِئْتَكُمْ مِنْهَا حَسَنًا﴾ [هود: ٢١-٢٢] إلى آخر الآية.

وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، ثم حدد

سبحانه غاية التنزيل فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٤) [الزمر: ١-٢]، يعني: إفراده بالعبادة وإخلاصها له سبحانه .. فهذا سبب التنزيل وغايته^(٥).

(١) مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) ثم ذكر بعدها الخلل في الاعتقاد وهو خلل في الربوبية.

ثم ذكر من موجبات الربوبية في خلق الإنسان ثم من موجباتها في ملكه للضر والنفع ثم انحراف الإنسان عند الرخاء فيعبد غيره تعالى، ثم يحدد ما هو التوحيد والإسلام بإفراد الله بالطاعة والخضوع، ثم يذكر من موجبات الربوبية في الكون من إنزال الماء من السماء .. ثم الإسلام والهداية إليه، ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد ثم التبرؤ من آلهتهم وعدم التعلق بها، ثم ذكر أدلة أخرى من الربوبية لإفراده تعالى بالتعلق والتعبد .. وأشار لمصير الكافرين وللخلل البشري في الخلق مع الله تعالى وجوده له وانصرافه عن حقه تعالى بحجج واهية من الشهوات يختبر بها فيسقط ثم دعا عباده إلى التوبة من الشرك ومن كل المخالفات .. إلي آخر السورة التي ذكر فيها مصير كل من المشركين الكافرين ثم المسلمين ثم حمد رب العالمين وفيها ذكر: ﴿قُلْ أَغْبِرُ اللَّهُ تَأْمُرُنِي أَعْبُدُهَا الْجَاهِلُونَ﴾، فكلها موجبات متلاحقة لمعالجة هذا الأمر العظيم بصور شتى وفي مجالات شتى، فالسورة كلها في تقرير هذا بعدما قررت أن القرآن كله قد نزل لهذه الغاية.

وهذا ما فهمته الجن لما سمعوا بضع آيات من القرآن يصلي بها رسول الله ﷺ:
قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْمَعَنَّ نَفْرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَ عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ﴾
فماذا فهموا من هداية القرآن؟ وماذا أداهم إيمانهم به؟
قالوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

٢- فهذه زبدة الرسالة بل وزبدة جميع الرسالات ..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

كلمة جميع الأنبياء: ﴿الْأَعْبُدُوا لِلَّهِ﴾ [هود: ٢]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

٣- بل وهو سبب الخلق والمقصود منه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
والمعنى: إلا ليوحدون. قال ابن عباس: كل عبادة في القرآن فهي توحيد.
وهذه نقطة تحتاج إلى توضيح:

فما ذكر في القرآن من الأمر بعبادة الله تعالى ليس المقصود بها مجرد أداء العبادات بل المقصود بها إفراده بالعبادات دون شريك .. وهذا هو مقصد ابن عباس رضي الله عنهما.
وهذا معنى سورة «قل يا أيها الكافرون».

- بيان أن معنى العبادة في مصطلح القرآن هو التوحيد، يعني إفراد الله تعالى بها، وليس مجرد الأداء لبعض العبادات مع كون بعضها لغيره تعالى، وذلك من خلال فهم معنى سورة "قل يا أيها الكافرون" مع بيان معنى التكرار الوارد بها:

فمقصود السورة الكريمة هو التبرؤ من الكافرين ومن طريقتهم، وبيان كفرهم وأن كفرهم راجع إلى إشراكهم بالله تعالى في العبادة سواه، وبيان أنهم لا يعبدون الله طالما أنهم يشركون به، فالعبادة لا تكون في محل القبول والرضى إلا إذا كانت خالصة لله تعالى، لا يُشرك معه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل .. فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الله وإن عبدوا معه آلهة أخرى على سبيل الشفاعة واتخاذ الوساطة لكن مقصودهم هو رب العالمين، وكانوا يقصدون أن هذا التشفع بغيره إليه والتوسط بغيره إليه لا يقدح في عبادتهم له، لأن مقصودهم تعظيمه، فلم يقبل منهم سبحانه هذه العبادة، بل وبين سبحانه أن عبادتهم مع شركهم كـ (لا عبادة) كأنها لم تقع .. فيصح نفي العبادة لله تعالى منهم رأسيًا، ولذا قال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة، وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، هذا لنفي زعمهم. فطالما أنهم يصرفون حقه الخالص له ولغيره فهم لا يعبدونه.

- بيان معنى التكرار للجمل في السورة مع المغايرة بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية.
ثم أكد مرة ثانية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ويكون هذا إما:

١- تكراراً للتوكيد ويكون قد نفى في الجملة الأولى وقوع الفعل منه ﴿لَا أَعْبُدُ﴾، وفي الثانية نفى اسم الفاعل ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ ليكون أبلغ، وفي المرتين نفى عن المشركين عبادتهم لله وأنها غير مقبولة وذلك لشركهم بل وكأنها ك (لا عبادة)، هذا قول.
والبعض يجعل التوكيد المجرد قول، وتنويع النفي ما بين الجملة الاسمية والفعلية قولاً آخر، والأخير هو اختيار شيخ الإسلام.

٢- وقول آخر للعلماء بأن الجملة الأولى فيها نفى عبادته لأهتهم وتوكيد براءته منها في الحاضر، وفي الجملة الثانية نفى عبادتها وأكد براءته منها في المستقبل، وهذا قول البخاري وغيره.
٣- وهناك قول آخر للعلماء فيها وذلك أن (ما) في الجملة الأولى موصولة بمعنى (الذي) فيكون المعنى: لا أعبد الذي تعبدون.. فيكون المقصود منها التبرؤ مما يعبدون، وأن (ما) في الجملة الثانية مصدرية فيكون المعنى نفى طريقة تعبدهم والتبرؤ منها ويكون معنى الآية: ولا أنا عابد عبادتكم، وذلك لأن تشرعاتهم مفتراة ومبتدعة وليست هي شريعة إبراهيم ودينه.

يقول البيضاوي: ﴿لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل ف (أن) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.

- وليبان المآخذ اللغوية لهذه الأوجه يقول البيضاوي رحمه الله مبيناً هذا:

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أي: فيما يستقبل لأنه في قرآن ﴿لَا أَعْبُدُ﴾.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي: في الحال أو فيما سلف.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أي: وما عبدتم في وقت، ما أنا عابده، ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريفة أبلغ، وقيل إنها مصدرية، وقيل الأوليان بمعنى الذي والأخريان مصدرتان^(١).

والقول الأخير هو الذي اختاره ابن كثير مع حكايته لباقي الأقوال، يقول رحمه الله تعالى:

﴿لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، وهو الله وحده لا

شريك له ف (ما) هاهنا بمعنى (من)، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ولا أنتم عابدون مَّا أَعْبُدُ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم كما قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمَا بَاوَدُّكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾، فترأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام (لا إله إلا الله

محمد رسول الله) أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ.

والمشركون: (١) يعبدون غير الله (٢) عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكَرَّ دِينَكُمْ وَوَلِيَ دِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾.

وقال البخاري يقال: ﴿لَكَرَّ دِينَكُمْ﴾: الكفر، ﴿وَلِيَ دِينَ﴾: الإسلام، ولم يقل: (ديني) لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِين﴾، و﴿يَشْفِين﴾.

وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيئكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، انتهى ما ذكره (١). ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وكقوله: ﴿لَتَرْوِيَ الْجَحِيمَ ۖ تَدْرُوتُهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، وحكاها بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً.

والثاني: ما حكاها البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ في الماضي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدتُّمْ﴾، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ في المستقبل. الثالث: إن ذلك تأكيد محض.

وتم قول رابع: نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدتُّمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم (٢).

وبهذا يكون في الجملة الأولى قد تبرأ مما يعبدون، وفي الجملة الثانية تبرأ من شريعة غير الله، وذلك لأن جماع الدين أصلاً:

١- أن يعبد الله وحده.

٢- أن يعبد بما شرع على ألسنة رسله في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت.

وقد نفهم معنى قوله تعالى في الجملتين: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدتُّمْ﴾، لكن لن يفهم أحد الشق الثاني والمكرر في كل جملة: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، والذي ينفي عن المشركين عبادتهم الله إلا إذا علم معنى العبادة، فإن الله تعالى أثبت لهم نوعاً من الأمور يتقربون بها لله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهُمْ إِلَّا مِنْ نِسَاءِ بَرِغْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَجَازٍ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وكذلك هم يزعمون أن هذه التعبدات مقصود بها رب العالمين كما يزعم المشركون دائماً هذا،

(١) يعني البخاري والكلام متصل لابن كثير.

(٢) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٧٢٦.

فالنصارى يزعمون عبادتهم لله بتعبدهم للمسيح، واليهود يزعمون كذلك أنهم يتعبدون لله تعالى بل وأنهم أولى بالله تعالى من غيرهم، وكما يزعم عباد القبور والأولياء والأضرحة أن مقصودهم رب العالمين.. فكما ترى.. الوثنيون وأهل الكتاب والمنحرفون إلى طرائقهم من منتسبي هذه الأمة الكل يزعم تقربه لله تعالى وقصده له تعالى من خلال وسائطه.. كل بحسب واسطته.. فنفى القرآن أي طريقة فيها إشراك أو رد للشرائع الناسخة ولم يقبل من أحد إلا أن يعبد بلا شريك في التوجه إليه تعالى، وأن يقبل الشريعة الناسخة مع محمد ﷺ.

فكلام ابن عباس أن العبادة في القرآن: هي التوحيد يستند إلى النص والإجماع.

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه^(١).

يعني: بين رسول الله وقومه المقرين بربوبية الله تعالى.

إذن فمن أجل التوحيد نزل القرآن.. ذلك لأنه به أرسل كل رسول - يعني: بالتوحيد - ومن أجله نزل كل كتاب كما أن من أجله خلق الله الخلق.

٤- وحصر الأمر عليه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَتَّىٰ تَقُومَ الصَّلَاةُ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، فالآية تبرز أهمية التوحيد ومكانته في الكتب المنزلة عموماً وكان الخلق لم يؤمروا إلا بهذا، برغم أن هناك أحكاماً وأوامر ونواهي أخرى ولكن لأهمية التوحيد ودوران الشرائع والكتب والرسول عليه فكانهم ما أمروا إلا بهذا. فهذا نص على أنه زبدة الكتب والرسالات.

٥- وكذلك التوحيد هو غاية القصص: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

فكان المقصود مما قص هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

بل وقد سبق كل قصص لبيان قصة الخلق مع (لا إله إلا الله) وليبيان أن كل رسول حمل هذه الجملة وكانت هي رسالته: ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هود: ٢٢]، ثم يقص سبحانه علينا كيف استقبل الخلق هذه الرسالة بهذه الكلمة، وكيف صبر النبيون من أجلها، ثم ماذا كانت عاقبة من قب لها وعاقبة من أباهما، ويقص علينا أن من يقبلها يكون له طريق وخلق ومنهج حياة خاص و متميز عن من لم يقبلها.

وعندما قال نوح: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: ٢-٣]، نعلم أن العبادة هنا يقصد بها إفراد الله تعالى بالتعبد.. والتقوى هنا تفسر بترك الشرك.

ويرتب تعالى على القصص إفراد الله تعالى بالعبادة، فيقول تعالى بعد القصص في سورة هود معقباً بحرف الفاء للدلالة على أن الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك مسبب عن القصص، وأن الغاية منه بيان بطلان الشرك وعاقبته في الدنيا وفي الآخرة، وبيان أحقية التوحيد ونجاة أهله ورفعتهم: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مَرِيٍّ مِمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُوا آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ [هود: ١٠٩].

٦- وكذلك فهو غاية العمران:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦١﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٢﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ [آل عمران: ٩٦].

فهذا البيت إنما وضع من أجل إعلان توحيد رب العالمين ونفي الإشراك به، وهكذا المسلمون عمرانهم وبنائهم وطريقه مدنهم المتمركزة بالمسجد لا بدور اللهو، فإننا البناء والعمران من أجل "لا إله إلا الله"، وكذلك التوالد والتناسل وطلب الولد.. فمكة المكرمة إنما نشأت من أجل امتثال أمر الله تعالى وإظهار شعائر الإسلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿١٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]. يعني: أسكنهم هنا، وتقوم قرية بأكملها من أجل إقامة الصلاة^(١).

فإقامة الدين وشعائره وشرائعه يقام من أجلها البنيان والمدن وتصلح من أجلها المرافق وترصد من أجلها الأموال ويهاجر من أجلها وتترك أوطان إلى أوطان كل هذا من أجل "لا إله إلا الله"، كما يتأثر البنيان وطريقته وتفاصيله بقيم هذا الدين.. إنها أعظم كلمة في الوجود: "لا إله إلا الله".
فهل من قرأ القرآن شعر بهذه المساحة الضخمة والثقل الرهيب لهذه الكلمة؟
من لم يفهم هذا من القرآن فليعد قراءته.

روى الحاكم في مستدركه: «عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت، رب إنما أريد شيئاً تخصني به. قال: يا موسى لو كان السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله»^(٢).

* * *

٧- وكذلك ينص القرآن على أن غاية الإنذار وغاية التخويف من النار هو ترك الشرك وإفراد الله بحقه الخالص:

فبعدما ذكر الله تعالى مشاهد القيامة والنار في سورة إبراهيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدُكُمْ هَوَاءً ﴿٤٥﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَاتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أُولَئِكَ نَكَوْنَا أَسْمَتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ [إبراهيم: ٤٣-٤٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ. رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبُرُوزَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾، إلى قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ [إبراهيم: ٤٧-٥١].

(١) على وجه تعلق اللام بإقامة الصلاة.

(٢) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرک ج ١، ص ٧١٠، رقم ١٩٣٦.

قال الله تعالى بعد كل هذا الإنذار: ﴿ هَذَا بَلْعُ اللَّتَائِسِ وَيَسْتَدْرَأُ بِهِ ﴾، ثم نص على المقصود من البلاغ والإنذار فقال: ﴿ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَيَذْكُرُوا لِلَّهِ الْأَلْتَبَابَ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وفي آيات الوعيد في سورة الزمر: ﴿ قُلْ إِنْ أَخْسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُتَيْبُونَ ﴾ [١٥] ﴿ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلْمٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، لِيُعْبَادُوا فَاتَّقُوا ﴾ [الزمر: ١٥]، يعني: بترك الشرك، وهذا واضح من السياق فقد قال قبلها: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [١١] ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [١٢] ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١٣] ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ [١٤] ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي ﴾ [الزمر: ١١-١٥]، وأكد بعدها على ترك الشرك فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧].

وفي آيات الوعيد في سورة الواقعة: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ [٤١] ﴿ فِي سَمُومٍ وَجَحِيمٍ ﴾ [٤٢] ﴿ وَظِلٍّ مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ [٤٣] ﴿ لَأَبَارِدُوكُم بِرِيحٍ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، قال تعالى بعدها مبيناً سبب العذاب: ﴿ وَكَأَنَّهُمْ يُصْرُونَ عَلَى الْهِنْتِ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٦]، وهو الشرك، ونص كذلك على تكذيبهم بيوم الدين وهو شرك أيضاً في الربوبية. فالتوحيد: تصديق بالله وبخبره، وخضوع خالص لله تعالى.

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [٩١] ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [٩٢] ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ [٩٣] ﴿ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [٩٤] ﴿ وَخُودٌ أَيْلِسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [٩٥] ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ [٩٦] ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [٩٧] ﴿ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٨]، فالتبكيك كان على العبادة من دون الله فهو سبب الدخول، ثم كان ندمهم على التسوية برب العالمين، والتسوية هنا هي في العبادة والمحبة، وليست في اعتقاد الخلق والرزق، فهذه هي الجريمة التي تحددها الآيات الكريمة.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ [١٨] ﴿ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً لَآتَيْنَاهَا مَنْ دُونَهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ يَعْلَمُ غُيُوبُ النَّاسِ ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]، فالنار والتهديد بها أصلاً إنما كان لمن يصرف حق الله تعالى إلى غيره.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [٢٨] ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارِ ﴾ [٢٩] ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [٢٢] ﴿ تَدْرَأُ تَكُنْ فَتَنْهُمْ أَوْ لَا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٢٣] ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَتَمَعَّرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَتْهُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وكان الاستمتاع بدعاء وعبادة الإنسي للجني فيستمع الإنسي بقضاء بعض أموره المحرمة، ويستمتع الجني بتعظيم الإنسي له وعبادته.

وقال عند موتهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنْهَكُمُ عَنْهَا اللَّهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَسِيفًا ۖ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَفَرُوا بِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ ۚ وَنَدْعُوهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا فَمَا نَعْلَمُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ۗ إِنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال عنهم يوم القيامة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ تَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٤].

وقال عنهم أيضًا يوم القيامة: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢١﴾ مَتَّاعٍ لِلْغَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيْهِ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وهذا نص مباشر: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِمَةٌ لِّذِي مِثْلٍ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِمَةٌ لِّذِي مِثْلٍ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١]، فهذا حصر للندارة والإرسال في هذا الأمر الجلل وهو إفراد الله تعالى بالعبادة. وغيرها من المواضع في القرآن يشير مجموعها بل وينص على الغاية من الإنذار وهو: إفراد الله بالعبادة وترك الشرك به.

٨- وكذلك التهديد بالعذاب الدنيوي والأخذ، كان من أجل التوحيد والنهي عن الشرك:

يجمع الله تعالى التهديد الدنيوي والأخروي فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهَآ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

ويهدد تعالى بأخذ السمع والأبصار التي خلقت لمعرفة الله والقيام بحقه، فلما تعطلت واستعملت في غير هذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧]، يعني: المشركون، فالشرك هو أعظم الظلم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويذكر تعالى كروب الدنيا وضوايقها، فيقول أنه يتبلى عباده ليرجعوا له وحده ويتخلوا عن كل ما تعلقت به قلوبهم، لكنهم في البلاء يخلصون، يعني: يوحدون، وبعده ينقضون العهد ويغدرون فيشركون: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

﴿وَمَا جَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، ﴿فَلِذَلِكَ فَكَّرُوكُمُ الْحَقِّ﴾ يعني: المعبود بحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٢-٣٣]، والفسق هنا هو الفسق الأكبر وهو: الشرك.

ويذكر تعالى كروب البحر: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاؤُ اللَّهِ تَخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [المنكبوت: ٦٥-٦٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذْ أَعَشَيْهِمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلِمَا تَجَنَّبَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ [لقمان: ٣٠-٣١]، والخنثار هو: الغدار.

﴿ وَإِذْ مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٥].

بل يذكر تعالى جميع الكروب والضر: ﴿ وَإِذْ مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]، ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ ؕ آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِيَمِّ بَرِيحٍ طَبِيعَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ آجِنَاتٌ مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِيِّينَ ﴾ [يونس: ٢١-٢٢]، والشكر هنا بالتوحيد وإفراده بالعبادة، ﴿ فَلَمَّا أَجَبْتُهُمْ إِذَا هُمْ يُبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِآيَاتِنَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجِعُكُمْ فَنَبْيِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِينًا إِلَيْهِمْ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

٩- وقد نص الله تعالى على موضوع المواجهة والتحدي والإشهاد بين الرسل وأقوامهم أن غاية المواجهة والتحدي والإشهاد هو: التوحيد.

فيأمر الله تعالى رسوله أن يواجه قومه بهذا: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُبَيِّنَ لَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لَهُ شَهَادَةٌ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأمره أن يواجه قومه بهذا: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا وَجْهًا وَوَلَّىٰ قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطَعِّمُ وَلَا يُطَعَّمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصِرْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فَفَدَّرَ جَحِيمًا وَذَلِكَ الْفُورُ الْمُمِينُ ﴾ [الأنعام: ١٤-١٦].

وأمره أن يواجههم بقوله: ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا وَجْهًا وَوَلَّىٰ قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطَعِّمُ وَلَا يُطَعَّمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصِرْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فَفَدَّرَ جَحِيمًا وَذَلِكَ الْفُورُ الْمُمِينُ ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥]، والصدق يكون في الأخبار، والعدل في الأحكام، فالمعنى أن كتابه تعالى صدق في أخباره عدل في أحكامه.

وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ لِبَرِّهِمْ خَيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّا صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّكْرِيِّينَ ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦].

وذكر عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨].

- بيان معنى قوله «ربي الله» ولماذا رفضها المشركون مع إقرارهم بربوبية الله تعالى، وبيان أن المقصود هو لازمها من إفراد الله تعالى بحقه الخالص والتأله له تعالى وحده:

وقول موسى: ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ وكذلك ما حكاه الله تعالى عن أصحاب النبي ﷺ في سورة الحج: ﴿ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

يعني: بموجبه من التأله له وحده، فالربوبية موجب الألوهية، فمن أقر بالربوبية فهو محجوج لأداء حق التعبد لله وحده وإلا لم ينفعه إقراره وصار حجة عليه، كما احتج تعالى على المشركين بإقرارهم بربوبية الله تعالى وتفرده بالخلق والرزق على وجوب إفراده بتعلق القلوب وبالطاعة وبالتوجه له وحده، بل جعلهم في بعض المواطن كأنهم كاذبين في إقرارهم وتصديقهم بخلق الله لهم.

وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ تَخُنُّ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، يعني: فهلاً تصدقون، فهو يدعوهم هنا للتصديق بأنه الخالق، بينما في معظم مواطن القرآن يذكر تعالى عنهم أنهم مقرون بهذا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ٩-١٢]، وغيرها كثير في مواضع مختلفة، فتكون دعوته تعالى هنا للتصديق بهذا الذي يقرون به سببه أنهم لم يأتوا بموجبه من عبادة الله تعالى وحده فيدعوهم لتحقيق موجب هذا التصديق.

يقول البيضاوي: ﴿ تَخُنُّ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة^(١).

وذكر عنه: ﴿ وَيَقُولُوا مَا لِيَ أَذْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَذْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقْبَرِ ﴿٤٢﴾ لَاجِرًا أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ قُوَّةً مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَرْبَابُ الْمُسْرَفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِيضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٤].

فالمقصود من الرسالة عموماً هو: التوحيد، والمقصود من المواجهة والمفاصلة أيضاً التوحيد.

ذم القرآن للشرك وبيان فحشه:

وكما علّمنا ربنا سبحانه وتعالى أن غاية القرآن والرسالة والمواجهة والقصص والإنذار والخلق والعمران هو التوحيد.

١- أخبرنا تعالى بفحش الشرك وأنه سُبّة لله تعالى:

ولهذا يقول تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سَخِرَ اللَّهُ عَمَّا يَعْبُورُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فهذا التسبيح هو تنزيهه لله تعالى عن الشرك في الوصف بادعاء الولد له (سواء كان من العرب بادعاء الملائكة بنات الله تعالى، أو النصراني بالإدعاء في المسيح عليه السلام، أو من اليهود بالإدعاء في العزيز).

ثم نزهه تعالى نفسه عن الشرك في العبادة لتضمنه أعظم السب له تعالى لما يستلزمه من التنقص لرب العالمين، سواء كان المعبود نبياً، أو ملكاً، أو صالحاً، أو أحدًا من آل بيت رسول الله ﷺ فقال بعدها: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢].

ويقول: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني: إلى توحيد كما هو نص المفسرين ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يعني: أيضًا يدعون إلى توحيد الله تعالى في العبادة، ثم ذكر الشرك ولأنه سُبّة لله تعالى ذكر قبله تسبيحه عنه تعليلاً للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالتوحيد الذي أنا عليه ومن اتبعني هو التنزيه لله وَسَبْحَنَ اللَّهُ، وأعلن براءته مما يسبه به المشركون بشركهم، والذي وإن لم يكن سباً صريحاً بل ويظن المشركون أنهم يتقربون به لله تعالى بزعمهم!! لكنه متضمن لأعظم السب فقال: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني: لستُ مثلكم ولا منكم ممن تسبون الله فلا أسبه بالشرك كما تفعلون.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «باب "الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله"، وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، فيه مسائل:

الثانية: التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيهه لله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله^(١).

يقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب عن المشركين المعاصرين لزمته من الغلاة في القبور والأضرحة: «وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بدمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا وأنهم أمر وهم به، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم!»^(٢).

(١) كتاب التوحيد، ص ٧٧.

(٢) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة.

٢- وهو أعظم الظلم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [البقره: ١٧٣].

٣- وهو موت قبل الموت فالمشرك ميت بين الناس: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، وهو تعريض بالمشركين بأن نسبة سماعهم للحق كنسبة سماع الميت إلى كلام الحي، بل هم كالقبور المتحركة بقلوب ميتة متعفنة منتكسة يحملونها بين جوانحهم وفي صدورهم.

٤- ولذا جعل الله تعالى المشرك ميتاً في ظلمة، وجعل الموحد لربه حياً قد قسم له من النور ما يضيء له حياته ومماته، وجعل تعالى الانتقال من الشرك إلى التوحيد والإسلام بمنزلة إحياء الميت وبعثه من جديد: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٥- وأي سعي وأي عمل لا يقبل إلا لمن كان موحداً، وهذا معنى اشتراط الإيمان لقبول العمل الصالح والسعي الأخرى الوارد في القرآن، فالإيمان المشترط لصحة الأعمال وقبولها مقصود به أصل الإيمان، وهو: التوحيد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

٦- وجعل الله تعالى سعي من فقد التوحيد سعيًا حابطاً:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبًا مِّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فصدقاتهم وإطعامهم وما يبذلونه من المعروف وما يعملونه على وجه القرية لله تعالى أحبطه شركهم فلم يجدوا ثواباً ولا حسنات.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: الصالحة التي لو عملها الموحد المؤمن لقبلت منه وجوزي عليها ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى عنهم يحدرننا الشرك ويوجب علينا تعلم التوحيد لتحقيقه، وتعلم ما هو الشرك لتجنبه، وإلا بطل العمل وخاب السعي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسَبُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

فليس لأعمالهم وزن، ولا لصحفهم، بل ولا لأشخاصهم كما ورد الحديث: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»^(١).

٧- وأخبرنا أن المشرك ضائع .. يهوي إلى وادٍ سحيق:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

٨- والمشرك سفية: ﴿وَمَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وذلك إمام الحنفاء الموحدين فقال في عقب هذه الجملة: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ثم ذكر ظرف الاصطفاء والصلاح وأنه كونه مخلصاً لربه في عبادته وأداء حقوقه الخالصة له بلا شريك فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، يعني: اصطفيناه وجعلناه من الصالحين عندما قال له ربه ﴿أَسْلِمُ﴾ يعني: أخلص دينك وعبادتك لله واستسلم له بقبول أمره فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يكتف بهذا، بل لعلمه بقيمة هذا الأمر كان يوصي أولاده وهم أنبياء بهذا الأمر الجليل. بل ويعقوب حفيده يوصي كذلك بهذا الإرث الضخم فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنْ أَلَّفَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، يعني: مخلصون لله قابلين حكمه تعالى، بل ويقلق يعقوب على إرثه هذا عند موته فيستوثق من بنيه قيامهم بعبادة الله وحده وتوحيده فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، يعني: مخلصون، مفردون له العبادة والتوجه.

وبين تعالى سفاهة المشركين دوماً فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»^(٢).

فالمشرك سفية شاء أم أبى، فالسفاهة ملازمة لكل مشرك، والاستقراء يوضح هذا بياناً واضحاً، ومن استقرأ أحوال الأرض من المشركين لوجد هذا ما بين مشرك بالقبور والأضرحة أو مشرك بمقبور يزعم له الصلاح، أو المشركين بالصليب وبالمسيح وأمه، أو من المشركين بالمادة والطبيعة، أو المشركين بالأوثان من بوذا إلى كونفوشيوس إلى عبادة الحيات والفئران إلى آخر الترهات، أو المشرك هواه أو المال أو الشهوات .. فكلهم ورث السفه عن أسلافهم ..

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي، قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر؛ فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به.

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٥٩.

(٢) صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٢٩٧.

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذها رباً، وجعل ثلاثاً أُنافي لقدره، وإذا ارتحل تركه».

فهذا السفه وهذا الضياع هو: الشرك، فجاء القرآن بفضحه وبيان قبحه وتسفيهه وتنزيه ربنا سبحانه وتعالى عنه.

٩- وهو أعظم الأمراض:

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، ولهذا جاء القرآن بالشفاء منه: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ولن يأمن أحد يوم القيامة إلا إذا جاء سالماً منه: ﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [٨٧] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَن آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، وأعظم الأمراض: الشرك، وأعظم السلامة هي: السلامة منه، ولذا قال المفسرون: (بقلب سليم) يعنى سلم من الشرك .

١٠- وصاحب الشرك خائف من كل شيء:

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، فكان أحدهم إذا نزل بوادٍ في سفر استعاذ بعظيم الوادي من سفهاء قومه فزادهم رهقاً. ولهذا قال الإمام أحمد لأحد الناس لما شكى إليه خوفه من بعض الأمراء فقال له أحمد: «لو صححت لم تخف» يعنى بالتصحيح استيفاء كمال التوحيد بنزع كل خوف بالقلب من غير الله تعالى وقصر خوفه على ربه تعالى فيبيده الضر والنفع وهو مقدر المقادير جل في علاه.

١١- والمشرک متمزق بين شتى أغراضه وأهنته وأسياده المختلفين المتشاكسين، بينما المؤمن الموحد مستريح القلب قد قصر توجهه على رب العالمين: ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رِّجَالًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

وإذا تعلق الأمر - وإن كان في حِسْنَا صغيراً - بالتوحيد والشرك فهو في القرآن قضية عظيمة.

فانظر إلى أمور قد تبدو لنا صغيرة قد أفرد لها كتاب الله تعالى حجماً كبيراً في الآيات، وبيان البطلان له وذلك لتعلقه بحق الله الخالص، والذي صُرف إلى غيره، سواء كان هذا الحق في التوجه لغيره تعالى بالنسك والتعبد، أو التوجه لغيره بحق التقنين والتشريع والتحليل والتحريم وذلك لبيان خطورة القاعدة وحجم الفساد الناشئ من الشرك بغض النظر عن حجم المخالفة الجزئية المستندة إلى هذا الانحراف الخطير.

فانظر إلى هذه الآيات: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلََّا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعُرُونَ
 (١٧٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْفُسُنَا وَأَنْفُسُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي صُنُوفِهِمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ
 أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَقْبَرَاءَ عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ (١٧٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
 خَالِصَةٌ لَّذِكْرِنَا وَمِجْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِثْقَلَةُ فَهْمٍ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٧٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَزَنُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَقْبَرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ
 ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿ [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

ثم ناقشهم تعالى في شأن ما فعلوا وأدحض حججهم فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
 مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
 وَمَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٨١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ (١)
 كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾، وخطوات الشيطان التي نهوا عن اتباعها
 هي خطواته في تزيينه التحليل والتحرير والتشريع والتقين من دون الله فيشركوا ويهلكوا [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

ثم ناقشهم بتفصيل أكثر فقال تعالى: ﴿ تَمَنِّيَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّالِّاتِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمُعْزَاتِ أَتَيْنَ قُلُوبَ
 الَّذِينَ كَرِهْتَ حَرَماً أَمِ الْأُنثِيَّاتِ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّاتِ نِيْعُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٢) وَمِنَ الْإِبِلِ
 أَتَيْنَ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنَ قُلُوبَ الَّذِينَ كَرِهْتَ حَرَماً أَمِ الْأُنثِيَّاتِ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّاتِ أَمَّ كُنْتُمْ
 شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وليس المقصود هو ذات هذه الصور من الشرك فقط، فالقرآن نزل لإصلاح أحوال الإنسانية إلى
 قيام الساعة مع اختلاف الزمان والأوضاع، وإنما المقصود مع النهي عن تلك الصور هو: بيان القاعدة
 الشرعية وبيان أصل دين الله تعالى، وبيان ما هو الإسلام والهدى، وما هو الشرك وسفاهته والضلال
 الذي يلزمه دوماً.

فعلى هذا لا يجوز لأحد أن يشرع للناس ما لم يشرعه الله لهم لا في الأمور العامة ولا الخاصة ولا شأن
 الفرد ولا شأن الدولة وإلا فهذا نقض للتوحيد والإسلام.

ففي الشرك الأعظم شأن الذبيحة كشأن الدولة طالماً أن الأمر يختص بحق الله تعالى الخالص.

وانظر إلى فعل قبيح كان يفعله المشركون - وهو طوافهم بالبيت عراة حتى لا يطوفوا بثياب
 عصوا فيها الله تعالى! فيلبسون من ثياب الخمس (القرشيين) فإن لم يجدوا طافوا عراة - وينسبون الأمر
 به لله تعالى استناداً إلى ظنهم رضاه تعالى عنه لأنه لم يغيره عليهم بعداب قدرى ..

فنزلت سورة الأعراف تناقش هذا الفعل الذي يبدو صغيراً ولكنه في ميزان الله تعالى له شأن
 مختلف لارتباطه بالتوحيد والشرك.

(١) يعني هو الذي أنشأ الجنات المعروشة وغير المعروشة، وأنشأ الأنعام الحمولة والفرس، وفي الآية التالية تفصيل ما أنشأه
 يعني أنشأ ثمانية أزواج .. إلى آخر الآيات الكريمة كلها معطوفة على مفعول (أنشأ) يعني (جنات) أو بدل من (الأنعام)
 وهو قوله (ثمانية أزواج)، (ومن الإبل اثنين..).

ولننظر كيف ناقشها كتاب الله وما هو عمق هذا النقاش لأنه يريد معالجة الأصل الذي أنتج هذا الخلل وجميع الخلل في جوانب الحياة، وليهيئ الأمر لإقامة حياة جديدة بقواعد جديدة لتصحيح الأمر برمته.

ومن أجل هذا ففيماء يلي نستعرض سورة الأعراف التي ناقشت هذا العمل الفاحش لننظر كيف تناولته وما هي القواعد التي جاءت فيها وربطتها بهذا الخلل؛ سواء في إيراد سبب الخلق وإيراد قصة الصراع الأولى والتي فجرت الصراع المستمر حتى اليوم مع إبليس وجنده، وإيرادها لمظاهر ربوبية الله تعالى في الكون، وإيرادها لمصارع المكذبين في الدنيا، ومصارعهم في الآخرة، وقصة الانحراف عن التوحيد ممن استقام عليه حتى نزعته منه الريادة، وغيرها من الحقائق والقواعد ..

ثم ننظر بعدها نظرة عامة في سورة الأنعام وننظر ما هي القضية التي تعرضها ولا تتجاوزها وإنما تتغير طريقة ومجال عرضها .. وهذان مثالان للسور المكية لتعلم طبيعة القرآن المكي عمومًا ..

أولاً: استعراض سورة الأعراف المكية

لننظر كيف تناقش أمر التوحيد والقضايا المرتبطة به ولو كانت في حسنا قضايا بسيطة وذكرها لقواعد العقيدة لإصلاح الحياة بأسرها

نزلت مقدمة سورة "الأعراف" التي تمثل قواعد في العقيدة بتحديد مصدر التلقي الوحيد، وهو أمر مباشر بالتوحيد وتنص على أن المخالفة في التلقي من الله بأن يقبل شرعاً من مصدر آخر مع الله أو من دونه شرك أعظم وهو اتخاذ اللولي من دون الله:

﴿الْمَصِّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ١-٣].

ثم التهديد بأخذهم كما أخذ من قبلهم لما خالفوا في هذا الحق وصرّفوه لغير الله تعالى وانحرفت حياتهم كلها تبعاً لهذا الانحراف الأعظم: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ [الأعراف: ٤-٥].

ثم يذكر تعالى قصة الخلق والغاية منه وهو الشكر بأداء حقه من التعبّد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ [الأعراف: ١٠].

ثم قصة الصراع التي يخوضها الإنسان مع عدوه الذي يريد أن يعبد غير الله تعالى ليورده الهلكة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّن السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ [الأعراف: ١١].

ثم التحذير من عداء الشيطان وبيان خطره بالتجربة الأولى مع آدم عليه السلام ثم حذر من اتباعه في التحريم والتحليل من دون الله بالإشارة إلى اللباس الذي أنزله تعالى نعمة منه وليس لأحد أن يحرم ما أحل سبحانه: ﴿يَبْنَیْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ الْقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِن آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ يَبْنَیْ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّن الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى المناسبة الحاضرة في الافتراءات على الله تعالى في التشريع من دونه ونسبة رضاه عن الأمر وعالج الأمر بأنه لا يأمر بهذا فأساؤه الحسنى وصفاته وأفعاله الحميدة تقتضي ألا يأمر بهذا سبحانه، ثم بين ما أمر به وهو إفراده بالعبادة والطاعة وإخلاص الدين يعني: إفراده بالذل والخضوع، وهذا لا يتحقق إلا بقبول شرعه وحده: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

ثم تذكر تحريم القول على الله بغير علم والشرك به تعالى، وهما متلازمان كخلل في الربوبية وخلل في الألوهية: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوْحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بَعْدَ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثم تذكر سنة الله في الهدى: (وهو تصديق خبر الله وعبادته)، والضلال: (بتكذيب خبر الله أو رد أمره أو التعبد لسواه)، وفروع الضلال جزء من هذا الوصف: ﴿بَيَّنَّا ءَادَمَ إِمَامًا بِآيَاتِنَا رَسُولٌ يُبَيِّنُ لَكُمْ قُلُوبَكُمْ يَفْصَحُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

ثم مصير الضالّال: (مكذبين أو رادّين على الله أمره أو متعلقين بالتعبد بغيره) فرادى عند الموت: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَفَرِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ قُلُوبَهُمْ قَالُوا أَيَّنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

ثم تذكر مصيرهم كجماعات عند دخولهم النار وبعدها: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لَأَوْلِيَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَالنَّارُ قَالَتْ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولهذا ينص على نوعي الخلل: التكذيب أو الاستكبار بردّ أمره فيفرق تعالى بين التكذيب (بآياتنا) والاستكبار عنها فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

ثم يذكر حال السعداء وهم من صدّقوا الرسل فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْبٍ نَجْزِي مَنْ نَحْنَبِهِمْ أَلا تَهْتَرُ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ نَهْدَىٰ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

ويستطرد السياق ليذكر محاورتهم للكفار الندامي على شركهم.

ثم يعرض بعض أدلة الربوبية التي توجب عبادته وحده بقبول أمره وحده فيقرر أن من له الخلق فله الأمر فيه (الأمر الشرعي والأمر القدري): ﴿إِن كَرِهْتَ الْفُلُوكَ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ إِلَيْهِ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ءَا لَهِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم يعقب بالأمر المباشر بالتوحيد: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].
والدعاء ينتظم (دعاء المسألة، ودعاء العبادة) بمعنى العبادة كلها، بمعنى: ادعوه إليها، مع التضرع والخفية التي هي أقرب إلى الإخلاص.

ثم تذكر صراعات الرسل مع أممهم حول التوحيد الذي أمر به العرب وقد انحرفوا عنه بعبادتهم لغيره وقبولهم شرع وحكم غيره، وأنهم امتداد لأمم كفرت قبل هذا كما أن رسول الله امتداد لرسول سبقوه هو والمؤمنون معه، وإذن فليخشوا عاقبة هذه الأمم بأن يكونوا مثلهم في الشرك فيكونوا مثلهم في الهلاك، فتذكر الآيات الرسل وأن رسالة كل منهم طلب العبادة لله وحده:

فذكر نوحًا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي صَلْبِكَ تُمِينٍ ﴿٧٠﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثم هودًا: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٠].

ثم صالحًا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ قَدْ جَاءَ تَكْوِيمٌ مِّن بَيْنَتِكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثم لوطًا، ويبرز معه حكم تحريم الفاحشة التي انفردوا بها عن الخلق فرفضوا شريعة الله تعالى من هذا التحريم، وهذا شرك أعظم مع شركهم الوثني: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

ثم شعيبًا، وأبرز مع الأمر بالتوحيد النهي عن محرمات مالية رفضوا تحريمها؛ فرفضوا عبادة الله ورفضوا شرائعه فكان شركًا في الجانبين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ قَدْ جَاءَ تَكْوِيمٌ مِّن بَيْنَتِكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

ثم سنة الله تعالى في الأمم التي تنحرف عن التبع له أو التقيده بشرعه أو التصديق بخبر رسله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

ثم تهديد الحاضرين الذين تركوا رسالة الله إليهم تكذيبًا أو رداً: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

ثم تهديد مباشر للحاضرين زمن الرسول، ولمن بعدهم: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نُنشَأُ أَصْنَانَهُمْ بِدُونِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والشرك هو: أعظم الذنوب.

ثم قصة الاستضعاف والتحدي والنصر مع موسى وقومه حينما واجه من يرفض عبادة الله تعالى رفضًا بليغًا بتكذيبه وإنكاره بل وجوده لله تعالى عنادًا، ويرفض أمره تعالى المتضمن في رسالته مع موسى وأنه لا يخضع لله تعالى بما أرسل به نبيه ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴿١٦﴾﴾ [الزمل: ١٦]، ويقرر أنه الرب الأعلى^(١) بمعنى: أنه المشرع المقبول أمره والذي يدان له بالطاعة.

كما يعرف القانون في زماننا بأنه: «القانون ليس بنصيحة ولكنه أمر، وهو ليس أمرًا من أي رجل لأي رجل ولكنه أمر صادر فقط ممن يدان له بالطاعة، وموجه إلى من تجب عليه تلك الطاعة»^(٢) بينما في الاسلام.. الذي يُدان له بالطاعة ويُخضع لقانونه هو الله رب العالمين وحده.

(١) راجع المصطلحات الأربعة للمودودي.

(٢) نظرية القانون، للدكتور فؤاد عبد الباقي، ومدخل دستوري للدكتور سيد صبري.

ويقول فقهاء القانون المعاصر: «إذ الحقيقة أن كل قاعدة قانونية تتضمن بالضرورة أمرًا بعمل شيء أو الامتناع عنه حقيقة أنه في كثير من الأحيان لا تظهر فكرة الأمر واضحة مجسمة في القاعدة القانونية، ولكن حتى في هذه الأحوال نرى فكرة الإيجاب والإلزام متوافرة بالضرورة»^(١).

فكان الصراع كله على تقرير لمن الخضوع والطاعة ولمن حق التشريع ولمن يُنتسك لجلاله كما يلتزم أمره:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٦].

﴿ قَالُوا يَكُونُ مِنَّا إِمَّا أَنْ نُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦].

﴿ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صٰغِرِينَ ﴾ [١١٧] ﴿ وَأَلْقَى السّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴾ [١١٨] ﴿ قَالُوا أَمْ آتَيْنَا بِالْعُلَمٰئِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٩-١٢١].

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِدُّ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَهَ الْهَتَكَ ؕ قَالَ سَنُقِيلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [١٢٢] ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٨].

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٢٣] ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣].

﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بَأْتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غٰفِلِينَ ﴾ [١٣٤] ﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرُوقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرٰءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧].

ثم انحراف قوم موسى كأمة للتذكير بأنهم انحرفوا بعد استقامة ووقع منهم الشرك بعد توحيد، كذلك العرب؛ شركهم هذا بعد توحيد واستقامة كانوا عليه منذ إسماعيل وأبيه إبراهيم حتى عمرو بن لحي، وهذا للاعتبار: ﴿ وَحَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرٰءِيلَ بِالْبَحْرِ فَأَتَانَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ؕ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ لَّا يُرَوُّ أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظٰلِمِينَ ﴾ [١٣٩] ﴿ وَلَاسِقَاطٍ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٤٩].

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٤٠] ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْسًا مِنْ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢].

﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

(١) نفس الشيء ذكره الشاطبي في "الموافقات" عن المباح وتضمنه لعنصر الإذعان. يراجع كتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي نقلًا عن د. فؤاد عبد الباقي.

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سِعْفُ رَبِّنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ثم انحراف البشرية عن ميثاق التوحيد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ثم انحراف الأفراد عن العهد المأخوذ على العلماء: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرِكَهُ يُلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

والمعنى: «أن هؤلاء اليهود انسلخوا من ميثاق الرسل بعد أن أقروا به ولا عجب في ذلك فالإنسان ينسلخ من ميثاق الفطرة بعد أن أقرَّ به وهو ملازمه لا ينفك عنه، ودعوة الرسل قد تغيب عنه بتأسيس الآباء للشرك ثم متابعتهم عليه، ولكن ميثاق الفطرة لا يمكن أن يغيب أو ينفك عنه ورغم ذلك فهو يخالفه وينسلخ منه باختياره، وإن كان ميثاق الفطرة عامًا وغير مفصل فقد ينسلخ بعض بني آدم من آيات الله أو تيت له هو ولا يمكن أن تغيب عنه كميثاق الرسل بعدم بلوغ الدعوة أو لشيوخ الجهل والتقليد وليست عامة كميثاق الفطرة الذي قد لا يكون واضحًا له غير مفصل ولا محكم، وذلك للإخلاق إلى الأرض واتباع الهوى، ولو شاء الله لعصمهم من هذا الانسلاخ ولكنه تركهم للابتلاء تبعًا لستته في الهدى والإضلال»^(١).

ثم الهدى لحق الله الخالص أو الضلال عنه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَدًى أَلَمْ تَلِكْ مِنْهُمْ أَتْلُحْسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

ثم طبيعة أصحاب النار من المشركين الذين حُرِّموا من عبادة الله وحده: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم التذكير، والأمر بالتفكير، والتهديد بالموت لقبول أمر الله المضمن في رسالته: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨١﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٤-١٨٥].

ثم التهديد بالساعة لنفس الغرض: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَتْفَىٰ عِطْفَىٰ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وبيان محدودية علم الرسول إلى جنب علم الله تعالى وقدرته كبشر، لتجريد الربوبية والألوهية لله تعالى وحده وعدم الخلط بين الربوبية وحققها من الألوهية من جانب وبين بشرية الرسول من جانب آخر: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ثم قصة الخلق مرة ثانية وبث الخلق وانحرافهم إلى الشرك على وجه الإجمال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِيْنِ مَا آتَيْتَنَا صَاحِبًا فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

ثم التحدي معهم بالتوحيد وتعرية من لا يده له ولا رجل ولا سمع ولا بصر ويُسمى إلهًا !!: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩١﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُون﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

ثم الثقة بالله تعالى ومواجهتهم بحوله وتوَلَّيه وحده كأحد أفراد العبادة: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم الخلق الرفيع الذي حاز المكارم كلها واللائق بعباد الله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ثم أهمية القرآن - كتاب الدعوة - ووجوب استماعه بإنصات وتدبير: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم إفراد الله تعالى بالعبادة والتسبيح والتنزيه عن الشرك .. مشاركة للملأ الأعلى في عبادتهم وتوحيدهم وإفرادهم ربهم بحقه من التعظيم والتسبيح والعبادة، والتنزيه عما لا يليق من الوصف، وما لا يليق من العمل بالتوجه لغيره أو الاستكبار على أمره: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

كانت المناسبة الحاضرة لكل هذه الأمور والحقائق العظيمة والتي حشدت في هذه السورة المباركة كانت المناسبة فعلة يفعلها المشركون قد يستصغرونها لكن لما كانت مستندة إلى الأصل الخطأ والباطل وهو صرف حق الله - في التشريع - إلى غيره بل والافتراء عليه في رضاه عنها وارتباط هذا الشرك بنوع آخر من الشرك وهو التعبد بالنسك القلبي: (من الحب والخوف والرجاء والتعلق وغيره ..)، والنسك الظاهر: (من الدعاء والذبح والتقرب وغيره ..) إلى غير الله تعالى.

لما كان الأمر كذلك ناقش القرآن فاحشة الطواف بالبيت عراة بهذه الطريقة.

وأرجو مراجعة سورة الأعراف وقراءتها مرة أخرى بعد هذا التوضيح لملاحظة الأمر واستباته، ولنعرف أن السورة كلها تدور حول التوحيد ولو كان السبب في كل هذه الأمور قد يبدو حيناً عند من لا يعرف قيمة الانحراف بالشرك أو قد يستصغره الناس لكنه عظيم لما يستند إليه من القواعد.

ثانياً: استعراض سورة الأنعام لننظر القضية التي تناولتها ولم تتجاوزها

وإنما تغيرت طريقة عرض نفس القضية وتنوعت مجالات عرضها

فليست سورة "الأعراف" فقط بل سور كثيرة فجملة سورة "الأنعام" كلها في التوحيد وتقديره بل إنها نصت على أركان توحيد العبادة الثلاثة:

ففي أولها النص على إفراده تعالى بالولاء: ﴿ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَمَّحْدُ وِلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُودَ أَوْلَ مَنْ أَسْمَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وفي أوسطها النص على إفراده بالحكم - يعني: التشريع وقبول الأحكام - فقال تعالى: ﴿ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَبْتَنِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وفي آخرها إفراده تعالى بالنسك والصلاة وسائر التبعيدات^(١) فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وذكر فيها شق الربوبية: ﴿ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن الرضا: «فصل، قال: وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رضى العامة وهو الرضى بالله رباً وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يظهر من الشرك الأكبر.

الرضى بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، قال ابن عباس رضى الله عنها: سيداً وإلهاً يعني: فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء، وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَمَّحْدُ وِلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، يعني: معبوداً وناصرًا ومعينًا وملجأً وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَبْتَنِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾، أي: أغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغى رباً سواه لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين

(١) إما على أن النسك هو: التعبد بمعناه الخاص، يعني: ما لا يعقل معناه على الخصوص. أو على أن النسك هو الذبح ويكون الذبح والصلاة تمثيلاً للعالم - وهو العبادة بمعناها الخاص - ببعض أفراده. فعلى الوجهين المقصود بالصلاة والنسك هو التعبد بمعناه الخاص يعني: المفارق للعادة والمعاملات.

فيه فإن هذا من تمام الإيثار ومن تمام موالاته، فموالاته أولياته لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه»^(١).

ونص فيها على المواجهة والإشهاد في شأن التبعيد والتنسك له تعالى: ﴿قُلْ أُنشِئْ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَجِدُّ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ونص كذلك على المواجهة والإشهاد في شأن التشريع وبنفس الألفاظ تقريباً مع مغايرة ركن التوحيد العملي من النسك إلى التشريع والتحريم والتحليل: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيْنَنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

والنص على أن ترك الأحكام الربانية والتلقي من غيره ولو حكماً واحداً بأنه شرك: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وسبب نزولها يقول ابن كثير: «وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب (يعني: الميتة) فهو حرام؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش.

وقال ابن جريج: قال عمرو بن دينار عن عكرمة: أن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبهم فارس فكتبت فارس إليهم: إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه؟ فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، ونزلت: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وقال السدي: في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف»^(٢).

وتفسير ابن كثير لها يقول: «أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقد متم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقد روى

(١) مدارج السالكين، ج ٢، صفحة ١٨١.

(٢) تفسير ابن كثير.

الترمذي: في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم فقال: بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»^(١).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير.. وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك - أن من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه، ولو في جزئية صغيرة، فإنما هو مشرك. وإن كان في الأصل مسلمًا ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا.. مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه. بينما هو يتلقى من غير الله، ويطيع غير الله»^(٢).

* * *

نظرة عامة على القرآن المكي وكيف تناول أمر التوحيد:

ولنعرف طبيعة القرآن المكي عمومًا ننقل بعض ما كتب الأستاذ سيد قطب عن هذا الأمر في أول سورة مكية في ترتيب المصحف وهي هذه السورة المباركة سورة الأنعام فعن سورة الأنعام خصوصًا وعن القرآن المكي وخصائصه عمومًا، في عرضه التوحيد في مجالات شتى من الكون للنفس الإنسانية إلى الآخرة إلى قصص الأولين وغيرها، وعلى وجه الإجمال يقول الأستاذ سيد قطب:

البداية بالعقيدة والتوحيد:

«هذه السورة مكية.. من القرآن المكي.. القرآن الذي ظل ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفرعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقرارًا مكيًا ثابتًا في قلوب العصابة المختارة من بني الإنسان، التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها؛ وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين.

وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة؛ خليقون أن يقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة الكبيرة.. ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عامًا.. لتقرير هذه العقيدة؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها..

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة. وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله؛ وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق، ويعبدهم له دون سواه.

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي أيسر السبل إلى قلوب العرب! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله".. كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا.. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيوخ القبائل والأمراء والحكام، وردده كله إلى الله.. السلطان على الضمائر، والسلطان على الشعائر، والسلطان على واقعيات الحياة.. السلطان في المال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان..

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن.

كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، و ثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب؛ وخروج على السلطات التي تحكم بشرية من عندها لم يأذن بها الله .. ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيداً، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله" - ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم .. ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام ..

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟ ..

استعراض البدائل أمام الرسول ﷺ للبداية بها بدلاً من التوحيد:

يقول رحمه الله: «لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب؛ إنما هي في يد غيرهم من الأجناس!.

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين، والمجتمع العربي كأشوأ ما يكون المجتمع توزيعاً للثروة والعدالة.

وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى

- إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية.

فلما تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكز إليها هذه العقيدة .. لما عرف

الناس ربهم وعبدوه وحده .. لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء .. لما

تقررت في القلوب: "لا إله إلا الله" .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون ..

تطهرت الأرض من الرومان والفرس .. لا ليتقرر فيها سلطان العرب .. ولكن ليتقرر فيها سلطان

الله .. لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانياً وفارسياً وعربياً على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام النظام الإسلامي يعدل يعدل الله، ويزن بميزان

الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده؛ ويسميتها راية الإسلام، لا يقرن إليها اسماً آخر؛

ويكتب عليها: "لا إله إلا الله"!

وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود

والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر؛ ولأن الطمع في

رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات ..

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها

من قبل قط؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام ..

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام؛ كانوا قد

أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد

وعدوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً، لا يدخل فيه الغلب والسلطان .. ولا حتى لهذا الدين على

أيديهم .. وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا .. وعداً واحداً هو الجنة .. هذا كل ما وعدوه على

الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب

السلطان، في كل زمان وفي كل مكان، وهو: "لا إله إلا الله"!

فلما أن ابتلاههم الله فصبروا؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائنًا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض. ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت ..

لما أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى. أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمة في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال .. وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراهية وحدها .. راية "لا إله إلا الله" .. ولا ترفع معها سواها .. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهرها؛ المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية .. أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: "لا إله إلا الله".

سبب إعطاء التوحيد مساحة كبيرة قبل تفاصيل الشرائع، مع بقاء الدلالة من هذا في كل واقع بإعطاء التوحيد نفس هذه المساحة في دين الله والبداية به في الإصلاح مع شمول التوجيه بالدين كله لأن الشريعة اكتملت ولا يجوز ترك شيء منها .. دق أو جل:

يقول رحمه الله: «فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها .. فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية ..

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء .. لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة؛ تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها؛ وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا .. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية .. ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا.

ولا بد أن يكون للمؤمنين هذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع؛ حتى تكون للنظام هيئته ويكون للشريعة جديتها .. فوق ما يكون حياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها.

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم. وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله .. ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع؛ وإنما نزل لهم عقيدة، وخلقاً منبثقاً من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة .. فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع؛ وتقرر لهم النظام؛ الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفوذ ..

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة، ليختزنونها جاهزة، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً .. إنها هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قلبه الخاص، وفق حجمه وشكله وملابساته.

كلا .. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبها في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات .. كان يستقذ فطرته من الركام؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .. والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وستحدث عن خصائصها بعد قليل ..».

التلازم بين المفهوم والحركة الواقعية في المجتمع:

يقول رحمه الله: «هذا بصفة عامة. وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية .. كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة .. في نفوس آدمية حاضرة واقعة .. ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر. إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقائيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية .. ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه - في العصور المتأخرة - علم التوحيد، هو الشكل المناسب كذلك .. فلقد كان القرآن يواجه واقعاً بشرياً كاملاً بكل ملابساته الحية؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع .. وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب. فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي؛ ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية!».

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها .. ومن هذه الملابس ظهر بناء العقيدة، لا في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي .. ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة، تمثل في الجماعة المسلمة ذاتها. وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها .. كان هذا النمو ذاته ممثلاً تماماً لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية له .. وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك.

إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان، تصور شامل كامل. ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي. وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي. لأن هذا يخالف

طبيعته وغايته. ويجب أن يتمثل في أناسي، وفي تنظيم حي، وفي حركة واقعية.. وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية؛ حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً؛ ولا ينفصل في صورة نظرية؛ بل يظل ممثلاً في الصورة الواقعية..

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين، وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي.

والله سبحانه يقول: ﴿وَرَمَّا أَنَا فَرَقْتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، فالفرق مقصود. والمكث مقصود كذلك.. ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية" لا في صورة "نظرية معرفية!!".

«هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال - نموذج كامل للقرآن المكّي الذي تحدّثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، في موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء..

ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن؛ والتي لا تحطّئها الملاحظة البصيرة في أية سورة.. فلكل سورة شخصيتها، وملاحظتها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها.. حتى وهي تتناول موضوعاً واحداً أو موضوعات متقاربة. فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها!.

وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة.. إنها في كل لحظة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل "الروعة الباهرة".. الروعة التي تبده النفس، وتشده الحس، وتبهر النفس أيضاً؛ وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعها وموحياتها مبهوراً!!.

مجالات عرض التوحيد في سورة الأنعام خصوصاً وفي القرآن المكّي عموماً:

يقول رحمه الله: «إنها - في جملتها - تعرض "حقيقة الألوهية".. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون.. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين.. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة.. وأخيراً تعرضها في مشاهد القيامة، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق..

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها. وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينايع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير.. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض، تلاحظ فيها

الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم. وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية. ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم. ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش، والأولين والآخريين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس.. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال.. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنها تتلقاه النفس أول مرة؛ وكأنها لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان!

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموجيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة. ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، متشابكة معها؛ في المجرى المتصل المتدفق!

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة، تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي وصفنا - مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين - وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!

ونحن - سلفاً - على يقين أننا لسنا بالبعين شيئاً في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي، وإيقاعها الذاتي، إلى هذا القلب.. لسنا بالبعين شيئاً بالوصف البشري والأسلوب البشري.. ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن - بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن!

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية^(١).. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟.. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك.. من بثها في هذا الموت؟.. هذا الماء الهاطل.. هذا البرعم النابغ.. هذا الحب المترابك.. هذا النجم الثاقب.. هذا الصبح البازغ.. هذا الليل السادل.. هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟.. هذه الأمم، وهذه القرون، التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف.. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق.. ولكنها تضي في هذه كله على منهج القرآن المكي..

«.. إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار.. إنها تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد.. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء..».

«.. ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد.. من أولها إلى آخرها.. فالله هو الخالق. والله هو الرازق. والله هو المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. والله هو العليم بالغيوب والأسرار. والله هو الذي يقبل القلوب والأبصار كما يقبل الليل والنهار.. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد؛ وألا يكون لغيره نهي ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحریم. فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة..».

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة؛ والتي تواجه القلب بالخشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب!.

عظم حجم ومساحة قضية التوحيد في القرآن وفي هذا الدين بغض النظر عن حجم المناسبات التطبيقية الحاضرة لها في البيئة المحيطة به في أي زمان أو مكان سواء تعلقت بشأن ذبيحة أو شأن دولة:

يقول رحمه الله: «والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض. في محيطها الواسع، وفي مجالها الشامل.. ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحریم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد.. وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ بِكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٣) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ بِكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عُقَابٌ إِنْ رَّبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٤) وَذُرُّوا ظَاهِرَ الْأَنْعَامِ وَبَاطِنَةَ الْإِنْتِزَاعِ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ (١١٥) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ آوِيَاتِهِمْ لِيَجْذِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمْهُمْ إِيَّاكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١٦) وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَرُونَ﴾ (١١٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حَجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ طَهْرُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهَا أَقْرَبُ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ (١١٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِثْمَةً فَهِيَ فِيهِمْ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٩) قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُقْرَبًا عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية حولها - التي تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة.. قضية التشريع.. ومن ورائها القضية الكبرى.. قضية الألوهية والعبودية التي تعالجها السورة كلها، ويعالجها القرآن المكي كله، كما يعالجها القرآن المدني أيضًا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع.

والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات، وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور - وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها - قضية الألوهية والعبودية - وجعلها مسألة إيمان أو كفر، ومسألة إسلام أو جاهلية .. هذا الحشد - على النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة، والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك - يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصلية في طبيعة هذا الدين. وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعاً مطلقاً لحاكمية الله المباشرة، المثلة في شريعته. وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة.

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر، كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين .. وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك.

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار، والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات متنوعة. بعضها مباشر، لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر، وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى، وليبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم، الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين .. على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي

أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَعَجْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١١١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَهُ وَفَرَسًا كُلُوا مِن مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١١٢﴾ تَمَيَّنِيَةً أَزْوَاجٍ مِنَ الْفُضَّيَّاتِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرَاضِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَئِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ وَمِنَ الْأَيْدِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَئِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيسَةً أَوْ دَمًا مَّسْمُومًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَائِجَ أَوْ مَا تَخَلَّتْ بِعِظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن بَيْنِ يَدَيْهِ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِيزَانٌ أَلَّا تَعْلَمُونَ وَإِن كُنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١١٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمِينَ ﴿١١٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٢٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ إِخْسَنَّا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ إِنَّهُ كَانَ قَاتِلًا لِّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعًا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾

كذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأنعام والندور في الأنعام والثمار، وفي الأولاد - على ما كان متبعًا في الجاهلية - يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة: بالهدى والضلال. واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان، وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحداية الله أو عدل غيرها به. واتباع صراطه مستقيمًا أو التفرق عنه. ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل ..

كما نراه يحد لها من المؤثرات والمحيات - في هذا الموضوع وحده - مشهد الخلق والإحياء في الجنات المعروشات وغير المعروشات. ومشهد النخل والزروع مختلفًا ألوانه والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه. وموقف الإشهاد والمفاصلة. وموقف البأس والتدمير على المشركين ..

وهي ذات المشاهد التي حشدتها السياق في السورة كلها من قبل، وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها، قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها. ولكل هذا دلالة التي لا تخفى على طبيعة هذا الدين، ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل ..

ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي تتناول قضية العقيدة بجملتها، في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية. وهي المناسبة التي لا نقول: إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله، وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل. ولكننا نقول: إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله؛ فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين؛ ونظرته لقضية التشريع والحاكمية في الكبير والصغير، وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا .. كما أسلفنا ..».

«.. والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق، أو سيل يتدفق، بلا حواجز ولا فواصل؛ وإن بناها ذاته ليصدق تمامًا هذه الروايات ..

روى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج»، ورسول الله يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم».

هذا الموكب، وهذا الارتجاج، واضح ظلها في السورة! .. إنها هي ذاتها موكب. موكب ترتج له النفس، ويرتج له الكون! .. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والمحيات والإيقاعات! .. وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والمحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة. ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجه التالية ملاحقة لها، ومتشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق!.

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع، كل مقطع منها يعالج جانبًا من الموضوع .. إنها هي موجات .. وكل موجه تتفق مع التي قبلها وتكملها ..».

«.. إن تقرير حقيقة الألوهية، وتعريف الناس بربهم الحق، وتعبيدهم له وحده، هو الموضوع الأساسي للسورة. فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهذه الحقيقة في مواقف منه شتى:

في موقف الإشهاد والمفاصلة، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها؛ وحيث يواجه بها المخالفين، ويصدع بها في قوة وفي يقين: ﴿ قُلْ أَغْبَرَ اللَّهُ أَنْخِدُ وَإِيَّا فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُهُ ﴾.

وفي موقف التهديد، حيث يتجلى سلطان الله محيطاً بالعباد؛ وتتعري أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة، أمام الهول، وأمام مصارع المكذبين: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغْبَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار، والأنفاس والأعمار، مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر، والنهار والليل، والدنيا والآخرة، والحياة والمات: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْفِقُكُمْ بِأَيْتِل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾.

وفي موقف شهادة الفطرة، واهدائها الذاتي إلى ربها الحق، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون، التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَاكَ أَتَّخِذُكَ أَصْنَامًا إِيَّا إِلَهَةً إِنْ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ ﴾.

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع، ومشهد الإصباح والإمساء، ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر، ومشهد الماء الهاطل، والزرع النامي، والثمر اليانع .. حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك، المبدع بلا شبيه، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفاً تنكره العقول والقلوب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُجْرِجُ الْحَمَى مِنَ الْعَيْتِ وَيُخْرِجُ الْعَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الْآيِلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

وأخيراً في موقف الابتهاال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك، والتجرد له صلاةً ونسكاً، ومحياً ومماتاً، واستنكار ابتغاء غيره رباً وهو رب كل شيء، وردّ الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء، وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء، حيث تختتم السورة بهذا الابتهاال الخاشع المنيب: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَلِيِّنَ ﴿٣٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

* * *

وهذه الخواص التي ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله موجودة في غالب سور القرآن المكي.

* * *

وسورة الكافرون، ويونس وهود والزمزم، وسورة النحل - وسيأتي نظرة عامة عليها في فصل لاحق - وأغلب القرآن المكي يدور على التوحيد بخاصية فريدة أنه يعالج نفس الموضوع لكن كانت كل سورة كأنها لأول مرة تتكلم عن التوحيد، فكل مدخل جديد فريد من نوعه (٢).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مقدمة سورة الأنعام.

(٢) يراجع الظلال.

بل القرآن كله إنما هو في تقرير التوحيد وحقوقه وجزائه في الدنيا من النصر والتمكين، وفي الآخرة .. الجنة، والتحذير من الشرك وآثاره وجزائه في الدنيا من الخزي والأخذ الإلهي، وفي الآخرة .. النار.

يقول ابن القيم بعد ما تكلم عن مآخذ المتكلمين المنحرفة والمختلفة في التوحيد:

«فصل، وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله.

وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سمواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول سورة تنزيل (السجدة) وأول سورة آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة "قل يا أيها الكافرون"، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن.

بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نبيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم^(١).

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله: «وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة، فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» حديث صحيح، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، متفق عليه.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد^(٢).

ويقول الشيخ عبد اللطيف: «والقرآن عامته إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول»^(٣).

(١) مدارج السالكين، ج٣، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) تيسير العزيز الحميد.

(٣) منهاج التأسيس والتقديس.

الخطاب التفصيلي في الأحكام والأخلاق في السور المكية والمدنية

وعندما انتقل الخطاب إلى الأحكام التفصيلية لم يترك التوحيد بل انتقل به إلى غيره من الأحكام والأخلاق والتوجيهات التي يسميها ابن القيم: (حقوق التوحيد ومكملاته)، ويسميها ابن حجر (متعلقات التوحيد) أو كما يسميها كثير من أهل السنة (الإيمان الواجب).

فنادانا باسم الإيمان المجمل وهو التوحيد فيقول: ﴿يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يقول ابن عباس: (هم الذين صدقوا الرسل فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا).

وهما شقا التوحيد: الربوبية والألوهية، أو العلم بالله والعمل بالخضوع له، وهذا هو العمل في أصل الدين (قبول شرع الله ورفض شرع ما سواه).

فكان الخطاب بالإيمان المجمل لتحقيق الإيمان الواجب من أحكام الدين وفروعه من الفرائض والمحرمات وهو واضح في قوله تعالى: ﴿يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [النساء: ١٣٦].

بل ويرجع السياق كثيراً أثناء الأحكام التفصيلية ليعلق الخطاب بشرط التوحيد:

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢٢].

فيبدأ الخطاب باسم التوحيد وهو الإيمان المجمل يعني: (أصل الإيمان) لتحقيق الإيمان الواجب.

ويعود فيعلق الخطاب بهذا الشرط كما علق العمل عموماً بنفس هذا الشرط: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ دَكْرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فترى أن الخطاب القرآني لم ينتقل من التوحيد إلى تفاصيل التشريع بل قد انتقل به. وفارق كبير ومهم بين الأمرين يجب أن يلاحظ.

الإيمان المجمل هو التوحيد بشقيه الخبري والعملي:

وننقل عن شيخ الإسلام تعريف للإيمان المجمل بأنه التوحيد، يقول رحمه الله:

«وقد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولاً وعملاً. فالتوحيد القولي مثل سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والتوحيد العملي: ﴿قُلْ يَتَّيُّهَا الْكٰفِرُونَ﴾، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر والطواف وغير ذلك، وقد كان أيضاً يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف في الركعة الأولى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكٰتِبُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوّٰمٍ﴾، فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام وفيهما الإيمان القولي والإيمان العملي، فقله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا

أَنْزَلَ إِلَيْنَا ﴿﴾، يتضمن الإيمان القولي والإسلام، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، يتضمن الإسلام وهو الإيمان العملي فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده: الإسلام والإيمان^(١).
ويقول ابن تيمية في رسالة "النبوات":

«والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر، فالأعمال: عبادة الله، والعلوم: تصديق الرسول. وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وتارة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، فإنها تتضمن الإيمان والإسلام، وبالآية من آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ﴾^(٢).

ويقول في موضع آخر من نفس الرسالة:

«والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة وذلك إنما يكون بأمرين بتصديق الرسل وبطاعتهم. فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان أو عبادة الله وحده وتصديق رسله. وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّكَ الْمُتَّسِّلِينَ﴾ [الاعراف: ٦٦]، قال أبو العالية: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد، يقال: من كنت تعبد وبهاذا أجبتم المرسلين^(٣).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «إن أصل دين الإسلام وأساسه، وعماد الإيمان ورأسه، هو توحيد الله تعالى الذي بعث به المرسلين، وأنزل به كتابه المحكم المبين قال تعالى: ﴿الرَّكَعَاتُ أُحْكِمَتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾^(١) ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُرْمَةٌ تَلَذُّوهُ وَيَشِيرُ﴾، وهذا هو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله^(٤).

(١) قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة، ص ١٥٨.

(٢) رسالة النبوات، ص ١١٦.

(٣) يراجع باستفاضة في هذا كتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي.

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية.

تتبع كيف انتقل السياق المدني- وبعض المكي كذلك- بالتوحيد الى تفاصيل الشرائع وبيان أنه لم يترك الخطاب عن التوحيد بل انتقل به الى غيره

ولمعرفة كيف انتقل السياق بالتوحيد لغيره من تفاصيل الأحكام ليخاطب باسمه ويعلق القبول عليه ومن ثمَّ يحضض على الالتزام بوجوده في قلب المخاطبين .. ننظر في بعض الأمثلة:
في سورة الطلاق أو النساء الصغرى تتكلم عن الطلاق والمراجعة وأنواع العدة ..
وفيها هذه الإشارات:

١- ربط الأحكام بالتوحيد: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فهي تذكر به وتحضض باسمه.

٢- وبعد إيراد جملة الأحكام قال تعالى بعدها محذراً من ردّ أوامره، ليربط الأحكام بأصلها من التوحيد الذي هو أصل الإيمان: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ [الطلاق: ٨]، وهذا لمن ردّ أمر الله، وليس مجرد المخالفة، فهذه هي معصية القرى التي أهلكت؛ فالله تعالى يصف فرعون بالمعصية: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [الزمل: ١٦].

بل ويصفه هو ومن قبله من قوم نوح وعاد وثمود ومدین، ويخص قوم لوط بوصف "المؤتفكات" .. بأنهم عصوا رسول ربهم، قال تعالى: ﴿وَمَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ، وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩-١٠]، ويقول في سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والخلود فقط لا يقتضي الكفر، فقد أوعد الله تعالى قاتل النفس بالخلود، وقتل النفس ليس كفراً، وإن كان من أكبر الكبائر، فلما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فسر الصحابة ومن بعدهم الخلود: بطول المكث، أما التأييد مع الخلود فهو لا يكون إلا للكفار، يقول شيخ الإسلام:

"وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فأطلق معصيتهم للرسول بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيب جنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمِيٍّ﴾، ومعصية من كذب وتولى قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَحْنَهَا إِلَّا الْآسَفِيُّ ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾، وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَلَفَ وَلَا صَلَاحَ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾.

ولفظ التولي بمعنى: التولي عن الطاعة مذکور في مواضع من القرآن كقوله: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأْسِ شَيْدٍ نَقْنَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وأن الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة ودم التولي عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ أَرْسُولَ﴾، وقد قيل أن التأيد لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١).

فمن هذا نعلم أن المعصية التي ترتبط بالخلود مع التأيد في النار هي خرق التوحيد بالإباء من قبول أوامر رب العالمين.

وفي سورة النساء جاء تهديداً لمن يطعن في حكمة الموارث أو يحتج لدفعها: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالَّذِي تَدُخِّنُ الشَّجَرَةَ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وقد أشار شيخ الإسلام إلى أن العذاب المهين لا يكون إلا للكفار يقول رحمه الله:

«وما يؤيد الفرق أنه قال هنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾، ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَالنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بَعْضٌ عَلَى عَصَبٍ وَاللَّكِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرَبًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وقوله: ﴿أَتَّخَذُوا آيَاتِنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالَّذِي تَدُخِّنُ الشَّجَرَةَ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له»^(٢).

فالمعصية في كل هذا إنما هي الرد والامتناع؛ يقول النسفي في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾: «وَالْخِيَرَةُ»: ما يتخير، ودل ذلك على أن الأمر للوجوب، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾: فإن كان العصيان: عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق»^(٣).

أو يسميها شيخ الإسلام (المعصية المطلقة)^(٤)، أو هي بمعنى (المعصية في التشريع) وهي مصطلحات مختلفة لنفس الأمر.

(١) مجموع الفتاوى، ج ٧، ص ٥٩ - ٦٠.
 (٢) الصارم المسلول، ج ١، ص ٥٧.
 (٣) تفسير النسفي، ج ٣، ص ٣٠٦.
 (٤) راجع مجموع الفتاوى.

في سورة المجادلة بعد أحكام الظهار يلتفت السياق بعد الخطاب للمؤمنين بتفصيل حكم شرعي يلتفت إلى الكفار الذين يرفضون أصلاً أحكام الله، فيقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤].

ويُثني بإشارة ثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْتُوا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

ثم يختم السورة بمن يوالي الكفار.. ثم يُثني على من تمسك بولائه لله ويتعالى على روابط الدم وغيره حينما تعارضت مع دينه ﴿لَا تَحِدُوا قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهكذا سائر السور المدنية التي تتكلم عن تفاصيل الأحكام ومنهج الله تعالى، يكون هذا الارتباط بأصل الأمر وهو توحيد رب العالمين.

وكذلك الأخلاق ففي الحديث عن الأخلاق والنص على جهل رابعة منها:

- ١- تُصدَّر بالتوحيد.
 - ٢- أو تُصدَّر وتختتم به.
 - ٣- أو يُضمَّن من بينها من جانب أن التوحيد قيمة خُلُقِيَّة وَأَنَّ الشَّرْكَ أَعْظَمُ الْقَبَائِحِ.
 - ٤- أو يذكر مساوئ الأخلاق مع الشرك، فيربط الخلل في التوحيد بالخلل الخُلُقِيَّ.
- ففي تصديرها بالتوحيد:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ نَفْسًا تَحْتُنَّ رُءُوفَكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ كُرِهًا وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي التصدير والختم به: جاءت وصايا سورة الإسراء فافتتحت بالتوحيد والنهي عن الشرك ثم ضمنت كقيمة خُلُقِيَّة: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، فهذه عقوبته في الدنيا.

ثم قال: ﴿وَفَضَىٰ رُبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفِي وَلَا نَنْهَرُهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفي نهاية هذه الوصايا ختمت هذه الآية: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، فهذه عقوبته في الآخرة. وفي تضمنها للتوحيد كقيمة خلقية:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِاتِ وَهُمْ هَلَا سَلِيقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وفي ربط الخلل في التوحيد بالشرك بالخلل الخُلقي:

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿الحاقة: ٣٣-٣٤﴾. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣].

ولزيد توضيح لهذا الأمر واستقراء له لبيان وجه الارتباط بين التوحيد والأحكام التفصيلية وأن السياق القرآني لم يترك التوحيد ليتكلم في شأن غيره بل استصحبه لينادي المكلفين باسمه ويعلق القبول باستيفائه ويحضض على امتثال الأمر به ويتوعد من يترك الأمر الشرعي لخلل في جانب التوحيد فيهدد الكفار الذين لم يقبلوا الأمر أو كذبوا به كما يخوف العصاة ألا يتبادوا في عصيانهم لئلا يصل الخلل إلى أصل الإيمان ..

فلهذا نستعرض فيما يلي سورة البقرة على وجه الاجمال ثم نستعرض سورة النساء بطريقة أخرى وأكثر اجمالاً لبيان هذه الحقائق وغيرها ..

أولاً: استعراض سورة البقرة؛ أول وأطول سورة مدنية

نرى كيف ناقشت التوجيهات وتفاصيل الشرائع مع التوحيد وبيان وجه الربط بينهما

فإذا ألقيت نظرة على سورة البقرة - كمثال للسور المدنية التي تحتوي على الكثير من الأحكام التفصيلية وهي أطول سور القرآن عموماً.

فتبدأ السورة ببيان أن هذا كتاب الله تعالى لا شك في ذلك وأنه خطاب علوي جليل ثم تقسم الناس إلى:

١- مؤمنين: فوصفهم بتحقيق التوحيد وأبرز جملة من الشرائع (إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) التي يوصفون بها (متعلقات التوحيد كما يسميها ابن حجر، أو حقوقه كما يسميها ابن القيم).

﴿الْمَرْءُ ۙ الَّذِي كَفَرَ بِاللَّهِ فِيهِ هُدًى لِّلنَّبِيِّينَ ۚ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۚ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَ هُمُ الْيَوْمُونَ ۝ ۚ ۝ وَأُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

٢- وإلى كافرين: رفضوا التوحيد تصديقاً وقبولاً أو أحدهما وأظهروا ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ۝ ۖ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

٣- وإلى منافقين: أظهروا التصديق والقبول وأبطنوا خلافها أو خلاف أحدهما فأخفوا التكذيب أو الشك، أو أخفوا رفض الخضوع، والإباء من القبول بكرامة ما أنزل سبحانه، أو رفضوا ولاء الله ورسوله والمؤمنين ووالوا الكفار سراً خوفاً من الدوائر من الهزائم أو القحط والفقر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ بِالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

ويضرب لهم مثلهم في ترك الهدى بعد استباته: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۚ ۝ صُمُّ بُعْثُكُمْ عَمَىٰ فَهَمُّ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

ثم مثل المتردد منهم لا يمضي في الحق: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِذَانِهِمْ مِنَ الضَّوْعِ حَذَرِ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۚ ۝ ١١ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

ثم تثبت صدق الرسالة وتحدى الكافرين لإلزامهم بصدق الرسالة وإلزامهم بقبولها:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ثم مصير الكافرين والمؤمنين: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۙ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۚ ۝ ٢٤ وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَكُمْ بِالسَّلَاحِ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مِنَ الْغَافِلِينَ ۚ ۝ ٢٥ وَرَزَقْنَا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥].

ثم إشارة لمن يضلهم الله عن توحيدِه ودينه ولماذا يضلهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ثم قضية الخلق والاستخلاف والعهد المأخوذ على البشر ليعبدوا الله تعالى وحده وقيموا منهجه تعالى وحده لا يشركوا به في عبادة ولا تشريع ولا يستكبرون عن إفراده بالعبادة أو عن قبول أمره وشرعه وكيف انحرفوا عن هذا العهد: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

ثم العهد المأخوذ على بني إسرائيل وكيف انحرفوا عنه - لتعريتهم لوجودهم بالمدينة واحتياج المسلمين لهذه التعرية لليهود والنصارى في سور أخرى كما عرى القرآن الوثنيين تمامًا بل وأهل الإلحاد بإشارات قاطعة: ﴿يٰٓبَنِي إِسْرٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَٰرِهُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠].

ويذكر بانحرافهم بالشرك عن عهدهم له بالتوحيد: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِهْلَ﴾ يعني: إلهًا ﴿مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

ثم يواصل تعريتهم .. وأنهم وصلوا للكفر بآيات الله تعالى برفضها وإسقاط التحاكم إليها بتحكيم غيرها وبتحريفها وقتلهم للأنبياء، وأن الذي جرأهم على هذا هو تعودهم على عصيان الأوامر والتعدي للحدود فاستمراء الذنوب قد يجري على المكفرات: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]. ومن هنا قال السلف: المعاصي بريد الكفر.

ويذكر عن جميع أهل الملل أن من استقام على التوحيد في وقته وعمل صالحًا بالشرائع التي نزلت له في وقته فقبلها وعمل بها أنهم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون): ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّٰلِطِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

ثم ذكر تعدي أحكامه والحيل عليها، ثم الجدل في أحكامه، ثم قسوة قلوبهم، ثم كتمان العلم وتحريف كلام الله عن مواضعه مع قلة الخشية مع التحذير من خطيئة الشرك التي تحيط بالعبد وهي غير أي خطيئة أخرى، فالؤمن مهما عصى لا تحيط به معصيته: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، فهنا رد الأمر والاستكبار عنه.

يقول النسفي: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: شرًا، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما رضي الله عنهم، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: وسدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه فأما إذا مات مؤمنًا فأعظم الطاعات وهو الإيثار معه فلا يكون الذنب محيطًا به فلا يتناول النص^(١).

ثم ذكر بميثاقه عليهم بالتوحيد مع التذكير بجملة من متعلقات التوحيد وحقوقه:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣]، وجاء النهي في صيغة الخبر زيادة في التأكيد فكان حق الكلام "لا تعبدوا إلا الله" - وهي قراءة لبعض الصحابة .. لكن جاءت في صيغة الخبر ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ يعني: فليكن حالكم هكذا "لا تعبدون إلا الله" وهذا أبلغ وأكد.

يقول النسفي: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾: الميثاق العهد المؤكد غاية التأكيد، ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾: إخبار في معنى النهي كما تقول تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاه وهو يخبر عنه^(١).

ثم ذكر من قبل بعض الشرائع ورفض بعضها باستحلال ما حرم الله عليه وأن هذا كفر:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾^(٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ فَغَدَّوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْئُوتٌ مِّنْكُمْ بَعْضُ الْكُذِّبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٤].

فقبلوا تحريم الفداء فكان هذا إياناً، ورفضوا تحريم القتل والإخراج من أجل تحالفات لمصالح دنيوية فكان هذا كفرًا، ولما كان القبول والرفض لا يتجزأ ولا يتبعض كان حكمهم الكفر، فالمؤمن يقبل حكم الله كله حتى قبل أن يعرف تفصيله، ولا يحيط أحد بكل الشريعة ومع هذا فكل مسلم لا يكون مسلمًا إلا إذا قبل وخضع لشريعة الله تعالى كلها لا يرفض منها أمرًا واحدًا، وإلا لم يكن مسلمًا، وأما الطاعة والمعصية فأمر آخر فكل بني آدم خطاء، وذكر الله من المؤمنين من: ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾، ولم يخرجهم من الإيوان، وأثبت الأخوة للقاتل وللمقتاتين، والذنوب يكفرها أكثر من عشرة أسباب.

ثم نص على أن الإيوان بما أنزل الله لا يتم بالمعرفة بل لا بد من الخضوع له وأن المعرفة حجة عليه وأنها لا تسمى إياناً - شرعيًا - ولو أقر بمعرفته، طالما أنه لم يخضع لما أنزل الله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، ثم قال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم ذكر تعالى تمنعهم من الاستجابة للرسالة الخاتمة الناسخة لما في أيديهم والمصدقة بها لا تحالفها وهي تدعو لنفس الأصل الذي دعوا إليه من أمر التوحيد فتعللوا أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم هم لا على جنس آخر من العرب، فلا يهمهم أمر الرسالة بل ذواتهم، وعصبيتهم عندهم أعظم .. فأكذبهم الله تعالى حتى فيما يدعون من الإيوان بما أنزل إليهم فقال أن ما معكم لم تؤمنوا به وساق إليهم ثلاث أدلة:

- ١- إياؤهم من قبول أوامر الله تعالى وفرائضه بقولهم: ﴿ سَمِعْنَا ﴾ يعني: قولك، ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ يعني: أمرك.
- ٢- تأكيد هذا الرفض للشريعة بقتلهم الأنبياء الذين أتوا يذكرونهم برسالة التوراة نفسها ولم يأتوا بما ينسخها.

فهذان للخلل في جانب التشريع بالشرك الأعظم فيه برفض أوامر الله تعالى لا مجرد المخالفة.

١- انحرافهم في جانب النسك بعبادتهم للعجل.

فذكر بأخذه الميثاق عليهم والأمر بالسمع والطاعة وهما معنى التوحيد بشقيه:

فالسمع هو العلم والتصديق، والعصيان هو الرد والامتناع. هذا في جانب الشرع.

وأما في جانب التعبد والنسك فأشربوا في قلوبهم العجل يعني: حب عبادته من دون الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُولُوا تَمَنَّا وَمَا نَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، فأجاب سبحانه عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، وبعد هذه التعرية والفضح لحالهم علق سبحانه عن إيمانهم المزعوم بقوله: ﴿قُلْ يَسْمَأُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيمَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٠-٩٣].

ثم فضح جهم للدنيا ومعرفتهم بسوء مصيرهم إن بقوا على انحرافهم.

ثم ذكر بخرقهم لإيمانهم وتوحيدهم بتفريقهم بين الله ورسله من الملائكة، والمؤمن الموحد يصدق بخبر الله كله ويواليه ويوالي أوليائه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَائِلَ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

ثم يذكر نبذهم العهود كخلق ودأب هابط منعهم من إيفائهم بعهدهم الأعظم مع رب العالمين.

ثم نص على نبذهم الكتاب - كتابهم الذي بين أيديهم - ﴿بَدَّ قَرْيُنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وهذا هو الخروج من التوحيد الذي معناه:

١- الإقرار بربوبية الله والتصديق بكتابه ورسوله واليوم الآخر والقدر وكل ما أخبر به على وجه الإجمال .. يعني: بخبر الله كله ما عرف تفصيله وما لم يعرف.

٢- إفراده بالعبادة وبالطاعة التي تعني: قبول جميع شرائعه وعدم رفض شيء منها والانقياد لإرادته الشرعية بقبول الناسخ الأخير من أوامر الله تعالى.

ثم ذكر أيضًا وجهاً من أوجه كفرهم وهو تعاملهم بالسحر المحرم الذي يستوجب عبادة الشياطين والاستهزاء والاستخفاف بآيات الله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا مَا نَتَلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَر﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم ذكر صفاتهم النفسية القدرة من الحسد، والكذب على الله بأنهم وحدهم أصحاب الجنة بدون استيفاء شروط دخولها، ثم النص على أن شرط دخول الجنة هو التوحيد مع إحسان العمل بإخلاصه وصوابه: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

وإسلام الوجه لله: توحيده بالإخلاص له (أصل الدين)، والإحسان: هو العمل الصالح المشروع والخالص من الرياء.

ثم تذكر الآيات اختلاف فرق الضلال ونفي بعضها لما عليه الأخرى من الحق .. وهو خرق للتوحيد وأصل الدين الذي يعني: تصديق كل كتاب نزل: ﴿ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِن كِتَابِهِ ﴾ [النورى: ١٥]، وقبول الناسخ الأخير سواء كان الناسخ في شريعة واحدة ورسول واحد (كأمر القبله في شريعتنا) أم في شريعتين مختلفتين ومع رسول بعد رسول كشأن المسيح بعد موسى ثم محمد ﷺ بعدهما. ثم ذكر انحرافهم عن التوحيد بادعاء الولد (اليهود في العزيز، والنصارى في المسيح)، وهذا الاعتقاد خلل في التصديق والربوبية، ثم ما يترتب عليه من صرف التعبدات للمسيح أو العزيز وهو خلل في الألوهية، وكلاهما كفر وشرك أعظم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبٌ ۗ ﴾ [البقرة: ١١٦].

ثم ذكر قصة إبراهيم وتوحيده وإسلامه وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١٣١]، ومعناها يدور على معنيين لأهل التفسير:

- ١- استسلم لله، وهذا لا يتحقق إلا بقبول الأحكام كلها في أي مجال فرديًا كان أو جماعيًا خاصًا أو عامًا في شأن مدني أو اجتماعي أو سياسي أو خلقي أو غيره .. يقبل في كل هذا من الله تعالى وحده.
- ٢- أخلص دينك لله، يعني: أقصر قبولك للأحكام على الله وحده، وأقصر توجهك بعباداتك لله تعالى وحده.

ويقول شيخ الإسلام: أن التحقيق يقتضي بوجود الأمرين معًا وذلك بالاستسلام لله وحده، يعني: قبول الأحكام من الله تعالى وقصر الاستسلام عليه وحده برفض الخضوع لشرائع وقوانين من سواه وهذا هو معنى الإخلاص.

ثم وصية إبراهيم لأبنائه (الأنبياء) بالتوحيد.

ثم قلق يعقوب عند موته واستيثاقه من بقاء ولده على التوحيد: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ۗ ﴾ فهو أعلى إرث وأعلى قيمة.

ولعلم ولده بعظم الأمر وضخامته لم يستغربوا السؤال ولم يستهجنوه بها أنهم موحدون كما يفعل جهال زماننا بل قالوا: (نعبد إلهك): ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ ۚ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ ۗ إِلٰهًا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وعند المساومة على الملة أمرنا بالاعتصام بملة إبراهيم السالف ذكرها وهي التوحيد الذي هو الإسلام: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرٰنَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم يذكر تعالى بشقي التوحيد مرة ثانية: ﴿ قُولُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ ۗ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۗ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهذا هو الشق العلمي الخبري أو الربوبية، ﴿وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وهذا هو الشق العملي الإرادي القصدي الطلبي أو الألوهية.

ثم يفرّد تعالى الإيمان في الآية التالية وهو قطعاً التوحيد، فهنا انفراد بالذكر فشمّل الشقين المذكورين في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فالإيمان هنا هو: الإيمان المجمل، يعني: التوحيد بشقيه: الإيمان العلمي، والإيمان العملي الذي هو الإسلام^(١).

ثم يذكر أن التوحيد صبغة وتوجه منفرد في الحياة وهو صبغة منتسبة لله تعالى على وجه التشريف: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ثم يذكر المحاجة في التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

ثم تحويل القبلة وتميز الأمة، وبيان أنه اختبار للموحدين المؤمنين الذين يقبلون حكم الله الأخير الناسخ ولا يمترون في ذلك.

ثم سنة الله في الابتلاء أثناء المجاهدة بدين الله تعالى لتمكينه.

والوعد بالصلوات والرحمة للصابرين.

ثم شعائر الحج والعمرة كأحد حقوق التوحيد، وهو شعار الحنفاء.

ثم التشديد في إظهار العلم الشرعي والتهديد لمن كتم الكتاب والبيئات، وأنه قد يكون سبباً للخروج عن الإيمان والتوحيد بإضلال الخلق وعدم بيان حقيقة دين الله تعالى.

ثم التذكير بالتوحيد مرة ثانية بإفراد الله تعالى بالألوهية: ﴿وَاللَّهُ كُذِّبَ إِلَهًُ وَحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ثم يذكر أدلة إفراد الله بالعبادة وموجباته من تفصيل ربوبية الله تعالى وما توجهه من إفراد الله بالعبادة، ومن أعظم أفرادها ومعانيها الحب والطاعة وإفراد الله بهما: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم يذكر ما يُعجَب منه من التسوية في أحد مفردات العبادة - وهو الحب - بين الله تعالى وبين خلقه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثم التحذير من التعدي في التشريع وهذا من التوحيد .. من حقوق الله تعالى الخالصة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، يعني: في تحريم ما أحل الله والتشريع من دونه ودعاهم إلى التزام شرع الله في كتابه فأبوا تمسكاً بعرف الآباء.

(١) راجع كتاب حد الإسلام وحقيقة الإيمان، وكتاب البلاغ المبين للشيخ عبد المجيد الشاذلي.

ثم أخبر تعالى أن الكتاب هو منهج رب العالمين، وأن نسبة سماع الكفار له كنسبة سماع الغنم لمن يصيح بها لا تسمع إلا الألفاظ وأصوات وحروف لا تفهم منها شيئاً.

ثم خاطبنا باسم الإيذان للالتزام بالتحليل والتحريم الشرعيين والأمر بالشكر وتعليق كل هذا بإفراد الله بالعبادة، يعني: إن كنتم تفرّدونه بالعبادة والطاعة وقبول الأمر:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلِمَاتٍ مِّن طَيِّبَاتٍ مَّا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم التحذير من كتمان العلم مرة ثانية.

ثم يذكر حقيقة البر والصدق والتقوى فيذكر التوحيد وجملة من الشرائع والصفات المحبوبة لله، يعني: يذكر التوحيد وجملة من حقوقه ومكملاته.

ثم ينادى باسم الإيذان المجمل ليأمرنا بحكم الله بالقصاص والإشارة إلى أخوة الدين وأنها لا تنفصم بالمعصية.. ثم حكم الوصية.

ثم نداء آخر باسم الإيذان المجمل ليأمرنا بحكمه تعالى بالصيام وتحريم أكل المال الحرام.

ثم القتال في سبيل الله والتأكيد أن قتال المسلمين لإعلاء كلمة الله وليكون الدين لله ونفي الفتنة، والفتنة: الشرك.

والتحذير من الانصراف إلى الدنيا وترك النفقة في الجهاد الذي يهدف لتلايكون هناك فتنة وهي الشرك

برب العالمين: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ثم تفصيل لبعض أحكام الحج شعار الحنيفية وشعار الموحدين ولذا قال طائفة من السلف:

﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]، قالوا: حجاجاً.

ثم يذكر المنافق الشرير الذي يظهر تصديقه وقبوله (ركني التوحيد) ويبطن خلاف هذا.

ثم يذكر من باع نفسه لله حتى لم يعد لنفسه حظ من نفسه فحقوق كمالات التوحيد بمخالفة الهوى والنفس والشهوات ولم يعمل إلا بأمر ربه وعلى مقتضى إرادته الشرعية الدينية وهذا كطرف في نقيض بينه وبين هذا المنافق السالف ذكره.

ثم الأمر بالدخول في جميع شرائع الإسلام وعدم رفض شيء منها بالبقاء على حكم منسوخ، وأن

هذا يستلزم رد الشرائع الناسخة وهذا نقض للتوحيد الذي هو إفراد الاستسلام لله بقبول حكمه

الناسخ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩].

وقد نزلت لما استأذن بعض اليهود الذين أسلموا - كعبد الله بن سلام - في أن يقيموا الليل بالتوراة وأن

يسبوا مع الجمعة فنزلت الآية وحذروا من الشرك بقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ﴾، قال ابن عباس: الزلل:

الشرك.

ووجه الشرك هنا هو رفض الشرائع الناسخة بالبقاء على شيء منسوخ، فما بالك بالمبدل وهو الذي

لم يأت به نبي بل هو محض آراء البشر وأهواؤهم!.

وما بالك بإهدار اعتبار الشرع جملة واستبداله بجملة قوانين صادرة من غير الله! بل يُنص فيها على رد الأمر لغيره تعالى بل وبتحريم الرد له تعالى!!!.

ثم يستمر السياق بتذكير بني إسرائيل بنعمه ليقبلوا الرسالة الأخيرة التي قبولها من التوحيد وإلا كان الشرك.

ثم ذكر سنته تعالى في اختلاف الأمم، وأن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد .. عشرة قرون بين آدم ونوح كما قال ابن عباس، ثم حدث الشرك فجاءت الرسل للهدى من هذا الانحراف.

ثم سنته في الابتلاء أثناء الصراع مع أهل الشرك وأنه الممهد والممحص لاستتھال الجنة.

ثم يذكر النفقة كأحد متعلقات التوحيد - على تسمية ابن حجر - أو حقوق التوحيد ومكملاته - على تسمية ابن القيم - أو أحد أفراد الإيذان الواجب الذي يخاطب به من حقق الإيذان المجمل.

ثم القتال لإعلاء كلمة الله ودينه وحكمه وأن علم الله لنا وشرعه لنا خير من اختيارنا وميولنا.

ثم حكم من اعتدى في الشهر الحرام من المجاهدين.

ثم بعض الأحكام التفصيلية من متعلقات التوحيد وحقوقه: من الخمر والميسر وترجيح تركهما - كحكم مرحلي - ثم حكم خلط أموال اليتامى، وتحريم نكاح المشركات، وبعض أحكام المحيض والاقتراب من الزوجات وتعليق الأعمال بطلب لقاء الله تعالى، وحكم الأيذان وأن لا تجعل حاجزاً عن الطاعة ثم أحكام الطلاق.

وبعد هذه الجملة من الأحكام التي توالى يعلق السياق الخطاب بها بمن آمن وقيل حكم الله تعالى فتأتي

هذه الإشارات للتوحيد والإيذان: ﴿إِنْ كُنْ يَوْمَئِذٍ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿ذَلِكَ يُعْظَمُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ونكرر أن الإيذان بالله تعالى هو التصديق به والخضوع له تعالى وحده.

ثم جملة أخرى من متعلقات التوحيد وحقوقه من الإيذان الواجب فذكر تعالى أحكام الرضاع والعدة للمتوفى عنها زوجها ثم أحكام مواعدهن للنكاح وحكم هذه المواعدة في أثناء العدة مع الأمر بمراقبة الله تعالى، ثم أحكام الطلاق قبل المسيس، وأحكام الصلاة .. ثم التحضيض للقتال في سبيل إعلاء كلمة الله.

وكلمة الله هي: جملة ما أنزل من الكتاب والسنة وإعلاؤها معناها أن تُحْكَمَ وتُتَمَكَّنَ ويخضع لها الناس.

ثم التذكير بمثل مجمل عن قبلنا ثم مثل مفصل مع طالوت وجالوت وبروز نبي الله داود والنص على أن

القتال هو ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: من أجل التوحيد ونشره والتحضيض على الجهاد من أجل هذا.

ثم إشارة إلى رسل الله الذين جاءوا بالتوحيد ورسالات مختلفة في فروعها متفقة في أصلها من التعبد والطاعة لله تعالى وحده.

ثم أعظم آية في الكتاب وهي آية الكرسي التي تنص على صفات رب العالمين وتفرد بالالوهية والربوبية، وهي تعليم مباشر لحق الله الخالص ولموجباته بالنص على جوامع صفاته الحسنی (الحي القيوم) والتي قال بعض أهل العلم أن جميع الصفات تدور عليها.

ثم التذكير بولاء الله للمؤمنين فالؤمن يتولى الله تعالى وحده وهذا ركن من أركان التوحيد، ويواليه ربه فكل مؤمن وكل موحد عنده أصل الولاية لله ثم تتفاوت ولايته بمقدار طاعته، فكل مؤمن يوالي ربه بالتوحيد فيواليه ربه ثم بمقدار ما يقوم به من الطاعة تزداد ولاية الله تعالى له بالمحبة والنصرة والحفظ.

وذكر تعالى ولاء الكفار للطواغيت بالشرك وتعلق القلوب بهم من دون الله وولاء الطواغيت لهم ليخرجوهم من النور إلى الظلمات في الدنيا ثم يرادهم النار يوم القيامة.

ثم يذكر تعالى المحاجة في إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع لأمره بين إبراهيم والنمرود.

ثم ذكر صفة القدرة والإحياء مما هو من ربوبية الله والتي توجب إلهيته وحده.

ثم جملة أخرى من متعلقات التوحيد وحقوقه من النفقة في سبيل الله والتحضيض عليها.

ثم تحريم الربا والمناقشة في من رفض تحريمه، فهنا نص على حكم شرعي وربطه بأصله من التوحيد لله بقبول الشرائع منه وحده وتحقيق الاستسلام له بقبول أحكامه، لأنه ذكر هنا استحلال الربا وليس مجرد أكله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَكَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهذا مبالغة في تحليلهم الربا كما قال المفسرون - بأنهم قاسوا حل البيع على حل الربا - يعني: أن حل الربا هو الأصل .. وكان حق الكلام أن يقاس الربا على البيع بأنه أحد البيوع الحلال .. لكن لشدة تمسكهم بإباحته ورفضهم لتشريع تحريمه مع الطعن في حكمة الأمر سبحانه وتعالى .. ساقوها على هذا الوجه فقالوا أن البيع مباح كالربا!.

ثم أشار سبحانه مرة أخرى لمن يستحل المحرم: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني: إلى استحلال الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وصيغة أصحاب النار لا تذكر إلا للكفار لأن المؤمن الموحد الذي معه الإيمان المجمل - التوحيد - وجملة من الإيمان الواجب لو لم يستوف الإيمان الواجب ولم يغفر له بالأسباب العشرة التي ذكرها شيخ الإسلام فدخل النار لخلل في الإيمان الواجب لا يقال عليه أنه من أصحاب النار لأنه ليس صاحبها وإن دخلها .. فلا بد له من الخروج إلى الجنة لأن معه الموجبة التي توجب له دخول الجنة: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(١).

ثم بقية أحكام الربا وكيفية التوبة والانخلاع منه بالنسبة لأصحاب رؤوس الأموال.

ثم آية الدين وآية الرهان وربطها بمراقبة الله، وهذا كله من حقوق ومتعلقات التوحيد.

ثم التحذير من أن يجر استئصال التكليف إلى رفضه فيقع الشرك: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلما نزلت قال الصحابة: هذه لا نطقها فقال ﷺ محذراً: «أتقولون سمعنا وعصينا..»، وهم لم يقولوا فعلاً سمعنا وعصينا لكن رسول ﷺ خاف عليهم. فهو تحذير من أن يجرهم استئصالهم للتكليف إلى رفضه.

ثم التضرع والدعاء والختام بالدعاء بالنصر بتقديم حيثياته بأنهم تولوا ربهم وحده - وهذا من التوحيد - وتبرؤا من الكفار - ولا يوالي المسلم الكفار وإلا لم يكن مسلماً.

ومن أجل ولائهم لربهم وحبهم له وبغضهم لعدوه فهم يجاهدون أعداءه لإزالة ما يسخطه من الكفر ولإقرار محبوباته تعالى وإقرار دينه فيدعون عندئذ بالنصر على عدوهم ويذكرون عدوهم بصفة (الكافرين) فلم يذكروا جنساً معيناً أو عرقاً يطلبون النصر عليه، يعني: أنهم ما عادوهم لحظ نفوسهم بل لكفرهم بالله وما جاهدوهم إلا لأجل هذا الوصف إما لإزالته، أو لقمعه ومنعه من صد الناس عن الهدى.

فهكذا رأينا القرآن يخاطبنا في جميع مناحي الحياة من تشريعات ومن خُلق ومن صفات ولم يترك التوحيد ليخاطبنا في هذا بل خاطبنا في كل هذه الأمور مع التوحيد؛ فيذكر به وبمفرداته أو بعضها ، ويذكر بالميثاق عليه وبالوصية به، ثم يربط به الأحكام فينادى باسمه، ويجعله شرطاً للخطاب ومحضاً على قبوله وعلى القيام بالأمر الشرعي.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ثم نص على ذم صنفين متضادين:

أ- ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ٣٧].

ب- ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿ وَلَا تَجْدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴾ (١٧) يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿ هَٰئِنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٩]، ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَّكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَّكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴿٨٥﴾ وَإِذْ أَخْبِئْتُمْ بِنَجْوَىٰكُمْ فَخَبِرُوا بِالْحَسَنِ مِنْهَا أوردوها إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيمًا ﴾ [النساء: ٨٥-٨٦].

وخطاب للحفاظ على الهوية بتعرية العدو: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَّا لَوْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦١]، ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَذُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَابُوا بِسَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٨٨-٨٩].

وخطاب سياسي وعقدي وبيان لحالة الخلاف بين الأمة والسلطة وكيفية علاجها وخطاب في نفس الوقت للسلطة برد الأمور إلى الله والرسول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وخطاب جهادي في القتال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَانْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

والتحضيض عليه: ﴿ فَلَمَّ قَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ ﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].

وخطاب عقدي: ﴿ آيِنَمَا تَكُونُوا يَبْدُرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِندِكَ فَلْيُكَلِّمْنَا مِن عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

وخطاب سياسي واجتماعي لحفظ الأمة: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

وخطاب للحفاظ على الهوية والتماسك: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ لُغْوٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فِتْنَةً لَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (٨٨) ﴿ وَذُوقُوا تَذَاتُكُمْ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٨٨-٨٩] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١٥) ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَقُّوهُنَّ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ (١٥٣) ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٤].

وخطاب في العبادات مع الجهاد: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (١٠١) ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

فهذا التنوع نبهنا عليه لمن يحصر الخطاب التشريعي فيما يسميه الخطاب الديني أو القاعدة الدينية أو الفردية.

فهذه أحكام الله؛ أولاً: متنوعة في جميع مجالات الحياة.

وثانياً: منها ما يخص الفرد وحده ومنها ما يخص الجماعة ولا تقوم به الجماعة إلا من خلال سلطة شرعية تقيم أمر الله.

• ثانياً: وأما الأمر بالتوحيد وبمفرداته والنص عليه وتحريم الخلل فيه فجاءت آيات كثيرة:

١- لما وقعت المخالفة في أحد أركان التوحيد العملي بإرادة التحاكم إلى غير الله ورسوله نزلت الآيات فاضحة ومجرمة لهذا العمل، ومبينة لارتباط هذا الركن بأصل الدين وبأصل الإيمان:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحَمَكُوا إِلَى الطَّلْعِ وَقَدْ أُسْرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (٦١) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخَلْقٍ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا لِإِحْسَانٍ وَتَوْفِيقًا ﴾ (٦٢) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (٦٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنُطَاعِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٦٤) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

ونفاقهم في هذه الآيات بولائهم لأعداء الله:

- إما بتكثير سوادهم ترويحاً لباطلهم كما كانوا يكثرون مجالس كعب بن الأشرف التي يطعن فيها في رسول الله ويسبهه ويشبب بنساء رسول الله ونساء الصحابة وفيها نزلت الآيات الأولى.

- أو لمن يعطي ولاءه للمؤمنين والكافرين حائراً بينهما وممسكاً للخيطين .. خائفاً من الدوائر.. فاقداً للاعتصام بالله تعالى.

- أو لمن لا ولاء له إطلاقاً فهو مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أما المسلم فولأؤه ثابت لله ورسوله والمؤمنين.

٥- وفيمن لم يستوف التصديق بخبر الله بليانته ببعض الرسل وكفره ببعض نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١-١٥٠﴾ [النساء: ١٥١-١٥٠].

وهو التفريق بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم ولا بد في التوحيد من التصديق بكل ما أخبر الله به فأما من بلغه أن هذا من رسل الله ويكفر به فقد نقض تصديقه وبالتالي نقض إيمانه وتوحيده.

٦- ﴿يَتَّاهَلُ الْكُتٰبِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُوْلُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِّنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحٰنَهُ ۚ أَنْ يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وهو النهي عن الغلو في المسيح وعن عبادته (هذا في جانب الألوهية).

وعن اعتقاد ألوهيته أو بنوته (وهذا في جانب الربوبية).

وكلاهما شرك أعظم.

مع النهي عن الكبر ونفيه عن ملائكته ورسله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُوْنَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلٰهِي جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢].

* * *

• ثالثاً: ومن جانب ربط تفصيل الشرائع به فهذه أمثلة:

المثال الأول: عند أحكام الموارث أعقبها بتهديد لا يأتي به الخطاب القرآني إلا للكفار:

﴿تِلْكَ حُدُوْدُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَتَّعِدْ حُدُوْدَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ [النساء: ١٣-١٤].

وقد أشار شيخ الإسلام في "الاعتصام، والصارم" إلى أن صيغة العذاب المهين لا تأتي إلا للكفار فقط بخلاف العذاب الأليم أو العظيم فقد يخاطب ويهدد بهما أو يوعد بهما الكافر وقد يهدد بهما الفاسق المي^(١).

فهذه الإشارة جاءت لمن يرفض أحكام الموارث أو يطعن فيها فقد ورد أن البعض قال عندما نزلت آيات تقرير حق المرأة والصغير في الموارث: أنورث من لا يغزو ولا يركب الخيل ولا يحوز الغنيمة فنزلت هذه الآية الكريمة.

(١) يعني الفاسق الذي لم يخرج بفسقه عن ملة الإسلام.

ويقول النسفي: ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾: لهوانه عند الله، ولا تعلق للمعتزلة بالآية فإنها في حق الكفار؛ إذ الكافر هو الذي تعدى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حد التوحيد، ولهذا فسر الضحاك المعصية هنا بالشرك، وقال الكلبي: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بكفره بقسمة المواريث ﴿وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ﴾ استحلالاً^(١).

(التفريق بين المعصية والاستحلال، ودخول رد أمر الله تعالى في معنى الاستحلال ولو كان صاحبه مصدقاً لخبر الله)^(٢).

وهنا نقطة مهمة جداً للتفريق بين المعصية والاستحلال الذي أشار إليه النسفي نوضحه من كلام شيخ الإسلام، وكذلك فإن البعض لا يفهم من الاستحلال غير الشك في حرمة المحرم المقطوع بحرمة أو التكذيب بهذا التحريم، وهذا خطأ وقصور، فإن هذه بعض أنواعه لكنه يشمل أيضاً الرفض المحض ولو كان مصدقاً وجازماً بالتحريم، سواء اقترن به طعن في حكمة الأمر سبحانه وتعالى كمن يتهم الشريعة بالتخلف أو الوحشية أو القصور، أم تمحض للرفض فقط .. مع بيانه - رحمه الله - لحقيقة أصل الإيمان والتوحيد الذي به يكون المسلم مسلماً.

يقول رحمه الله أثناء كلامه عن ساب الرسول وكونه كافرًا بمجرد سبه لرسول الله بدون قيد آخر، ويرد على من يقيد كفره بحالة ما إذا اعتقد جلّ السب ولم يكفروه بالسب المجرد، رغم أن المتواتر عن الله ورسوله وصحابته أن من سب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله فقد ارتد بهذا السب لا يشك في هذا مسلم، والتقييد بالاستحلال صحيح مع الذنوب والكبائر، أما التقييد بالاستحلال لما هو بذاته مكفر خلل عظيم في الفهم لدين الله رغم انتشاره حتى في أوساط كثير ممن يتصدرون للدعوة في واقعنا المعاصر الأليم، وذلك أن من يتأثر بشبه المرجئة والجهمية يطرد هذا الأصل فيأتي للاستهزاء أو الاستخفاف بالشرع أو بالدين عمومًا وبغيبياته، أو لرد أمر الله تعالى باستبدال شرعه بشرع وقوانين أخرى يلتزم بها بدلاً عن ما أنزل الله تعالى .. لأنها أحكام في نفس المناطات التي أنزل الله تعالى فيها أحكامًا شرعية، فيكون قبول أحدهما مستلزمًا لرد الآخر، فالحكم الشرعي في هذا أنه بمجرد هذا الاستهزاء أو الاستخفاف أو التبديل الذي يفرض أوضاعًا عامة ليلتزم بها الناس وتفرض عليهم شريعة أخرى غير شريعة الله تعالى ..

هذه الأوضاع بذاتها رد لأمر الله تعالى وتستلزم انتفاء الإيمان من القلب وهي شرك أعظم ونقض للإيمان^(٣)، لأن الإيمان عبارة عن: (تصديق بخبر الله تعالى، وقبول لأمره) فإذا انتفى التصديق فليس بمؤمن ولا مسلم، وإذا انتفى القبول للأحكام، عمومًا أو خصوصًا، فديًا أو جماعيًا، فليس بمؤمن ولا مسلم، كما قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: من قال أصدق الرسول ولا أطيعه (رد الأمر) فهو كافر وإذا

(١) تفسير النسفي جـ ١، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) لأهمية ونفاضة وحسم كلام شيخ الإسلام كان هذا النقل المطول بعض الشيء لعظم الاستفادة منه ومواجهته لشبهات قائمة في هذا الزمان تلبس على الناس أمر دينهم.

(٣) لمن فرضها ولمن قبلها ورضي بها، أما من علم الله أنه كاره فقد برئ من هذا الجرم.

قال أطيعه ولا أصدقه فهو كافر حتى يطيعه ويصدقه معاً، فدخول التقييد بالاستحلال القلبي على رد أمر الله تعالى معناه أن الإيمان عند قائل هذا الكلام هو مجرد التصديق القلبي وهذه من أفسد العقائد وأخبثها وأخطرها على الأمة.

يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - بيانا لهذه الحقيقة: «وجواب الشبهة الأولى من وجوه:

أحدها: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لا بد أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئاً، وإنما يمتنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول والتكبر عليه أو الإهمال له وإعراض القلب عنه ونحو ذلك كما أن إدراك الملائم والمنافي يوجب اللذة والألم إلا أن يعارضهم عارض، ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه كما يكون وجود ذلك كعدمه بل يكون ذلك المعارض موجباً لعدم المعلول الذي هو حال في القلب وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان بالكلية من القلب، وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء أو تكبر عليهم أو كره فراق الإلف والعادة مع علمه بأنهم صادقون وكفرهم أغلظ من كفر الجهال.

الثاني: أن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر؛ فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد، وإذا كان كذلك فالسبب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به.

فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً، وهذا موضع زاع فيه خلق من الخلف: تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون، ولو أنهم هدوا لما هدي إليه السلف الصالح لعملوا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولاً في القلب وعملاً في القلب.

فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره، فيصدق القلب أخباره تصديقاً يوجب حالاً في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمناً إلا بمجموع الأمرين؛ فمتى ترك الانقياد كان مستكبراً فصار من الكافرين وإن كان مصدقاً؛ فالكفر أعم من التكذيب: يكون تكديباً وجهلاً ويكون استكباراً وظلماً، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار

دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالاً وهو الجهل.

ألا ترى أن نفرًا من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه وكذلك هرقل وغيره؛ فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق؟.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله وقد تضمنت خبراً وأمرًا فإنه يحتاج إلى مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره "وأشهد أن محمدًا رسول الله" تضمنت تصديقه فيما جاء به من عند الله؛ فمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلتا الشهادتين - وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول - ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرًا وباطنًا ثم يمتنع من الانقياد للأمر إذ غاية تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه وتعالى كإبليس وهذا مما يبيِّن لك أن الاستهزاء بالله أو برسوله ينافي الانقياد له لأنه قد بلغ عن الله أنه أمر بطاعته فصار الانقياد له من تصديقه في خبره.

فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح، ومن استخف به واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقادًا لأمره؛ فإن الانقياد إجلال وإكرام والاستخفاف إهانة وإذلال وهذا ضدان فمتى حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر، فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد.

الوجه الثالث: أن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه واعتقاد انقياد الله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر فإما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتبهًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج، فإن العصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادثته تنافي هذا التصديق.

وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلًا لها فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه وكذلك لو استحلها من غير فعل.

والاستحلال:

١ - اعتقاد أن الله لم يحرمها^(١).

٢ - وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها^(٢).

هذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية و لخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة.

(١) تكذيب لأنه يجزم بعدم التحريم.

(٢) شك في تحريم الله تعالى لهذا المحرم المقطوع بحرمة.

٣- وتارة يعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم فهذا أشد كفراً ممن قبله وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه.

(الإمتناع نوعان):

١- ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الأمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته^(١).

٢- وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردًا أو اتباعًا لغرض النفس وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه^(٢) ويقول: أنا لا أقر بذلك ولا أتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه، فهذا نوع من غير النوع الأول، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع بل عقوبته أشد وفي مثله قيل: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) - وهو إبليس ومن سلك سبيله - وبهذا يظهر الفرق بين العاصي فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويجب أنه يفعله لكن الشهوة والنفرة منعه من الموافقة فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد وذلك قول وعمل ولكن لم يكمل العمل.

وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن من كان الانقياد له والإكرام شرطاً في إيمانه وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعته وتقواه، وجانب الله والرسول إنما كفر فيه لأنه لا يكون مؤمناً حتى يصدق تصديقاً يقتضي الخضوع والانقياد، فحيث لم يقتضه لم يكن ذلك التصديق إيماناً بل كان وجوده شرّاً من عدمه فإن من خلق له حياة وإدراك ولم يرزق إلا بالعذاب كان فقد تلك الحياة والإدراك أحب إليه من حياة ليس فيها إلا الألم.

وإذا كان التصديق ثمرته صلاح حاله وحصول النعم له واللذة في الدنيا والآخرة فلم يحصل معه إلا فساد حاله والبؤس والألم في الدنيا والآخرة كان أن لا يوجد أحب إليه من أن يوجد.

وهنا كلام طويل في تفصيل هذه الأمور، ومن حكّم الكتاب والسنة على نفسه قولاً وفعلاً ونور الله قلبه تبين له ضلال كثير من الناس ممن يتكلم برأيه في سعادة النفوس بعد الموت وشقاوتها، جرياً على منهاج الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله، ونبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتباعاً لما تتلوه الشياطين^(٣).

(١) كمن يطعن في أحكام الشريعة ويصفها بالوحشية أو الجمود أو التخلف أو الرجعية، أو كمن يستهزئ بأحكام رب العالمين ويسخر منها سواء بطريقة فردية كالنكت والطرائف الساخرة من الدين كالغيبات أو الآخرة أو القرآن العظيم، أو بوجه عام من خلال أعمال فنية تسخر من الدين أو من مصطلحاته كالجهاد أو غض البصر أو غيره أو تسخر من رموزه من علماء الأمة.

(٢) كمن يرفض أحكام الشريعة بأن تكون هي القوانين العامة والخاصة للمسلمين، ويرفض كونها ملزمة بوجه عام مع كونه يصدق بأنها حكم الله تعالى لا يشك في ذلك أو لا يبديه لكن لا يرى كونها ملزمة، ويقول فلتتق هذه الأحكام في إطار الميول الفردية للمسلم لكن لا يلزم بها المجتمع والأنظمة السياسية أو الاجتماعية أو الإعلامية أو الثقافية أو أسس الدولة عموماً.

(٣) الصارم المسلول جـ ١، صفحة ٥١٩.

المثال الثاني (على ربط تفصيل الشرائع بالتوحيد):

عند الوصية بجملة من الأخلاق والنهي عن رذائل الخلق، المتلازم منها، والمتضاد من البخل ومن الإنفاق مراءاة، بدأها بالنص على التوحيد وتحريم الشرك: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ سَيِّئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿﴾ [النساء: ٣٦-٣٩].

ذلك لأن التوحيد هو قاعدة التشريع وقاعدة الخلق وعلى أساسها يخاطب العبد وبشرطها يصح العمل ويقبل.

المثال الثالث: يخاطبنا تعالى باسم الإيمان المجمل لتحقيق الإيمان الواجب، يعني: القيام بشعب هذا الدين وفرائضه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ نَزَّلَ عَلَيْهِ رُسُولُهُ وَالَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿﴾ [النساء: ١٣٦]، يقول الحافظ بن كثير: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانها ودعائمه».

المثال الرابع: النداء في جميع الفرائض والمحرمات - أي: حقوق التوحيد ومتعلقاته - باسم:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يعني: صدقوا وانقادوا.

هذه سورة النساء ..

وهنا كلمة:

إن خطاب الله تعالى متواتر في القرآن والسنة بأنه خطاب عام في جميع جوانب الحياة .. فهو يخاطب الناحية العقديّة ويخاطب الخلق الفردي والتعبّد الفردي والمشاعر والسلوك .. ويخاطب الناحية العامّة الجماعية .. جماعة المسلمين .. الأمة ..

ويخاطب السلطة بخطاب عام تعبدي لإقامة الشعائر، ويخاطبها بخطاب عاديّ لإقامة الشرائع؛ ففي السياسة خطاب وفي الاقتصاد خطاب، وفي الناحية العسكرية القتالية لتحديد أهدافها وأحكامها مع الخصوم خطاب، وفي الناحية الاجتماعية العامة والأسرية خطاب وفي الناحية الفكرية والفنية وفي كافة أنشطة السلوك البشري خطاب شرعي كذلك، وهكذا..

يقول الإمام الشاطبي عن الشريعة وعلمها وخواص هذا العلم: «إحداها العموم والاطراد فلذلك جرت الأحكام الشرعية في أفعال المكلفين على الإطلاق وإن كانت آحادها الخاصة لا تتناهى، فلا عمل يفرض ولا حركة ولا سكون يدعى إلا والشريعة عليه حاكمة إفراداً وتركيباً»^(١).

والإسلام يحدد هوية الإنسان العقديّة ويراعي الهوية في السلوك وفي المظهر من سمت إسلامي وملبس ومسكن .. فهو يؤثر في طريقة العمران وبناء المدن التي تتمركز بالمسجد .. والتي تراعى فيها القيم التي جاء بها هذا الدين من الجمال ومراعاة الضعفاء والنساء .. والخلق العام من العفاف والرحمة بالصغير وتوقير الكبير، وعفة الكلمة والمنطق مع عفة النظرة ..

وبناء البيت الذي يراعى عورة المسلم ومكان صلاته ومراعاة صحته ورفاهية ولده وزوجه مع التستر، مع الجمال والطمأنينة ومعرفة واجبات كل فرد في الأسرة، احترام المرأة زوجة وأم و بنت وأخت كجوهرة مصونة وعرض يسان ..

ويحدد الإسلام طريقة الشرب والأكل وما يحل وما يحرم من الطعام والشراب والآنية .. والجلسة أثناء الطعام واليد التي يأكل بها والأصابع وكم يأكل وما يحرم عليه .. وهل يتكلم على طعامه أم يسكت ..

كيف يمشي وكيف يقعد ..

والملبس وما يحل منه وما يحرم، واستحباب ألوانه ..

ويؤدب المسلم في طريقة كلامه ومتى يتكلم ومتى لا، وماذا يقول، وماذا يتخير من الكلام.

فيهتم بكلامه وبصمته ويهتم بنظره وإلام ينظر وأن يعتبر بهذا النظر ..

فيكون نطقه ذكراً ونظره عبرة وصمته فكراً ..

حتى نومه كيف ينام وكم ينام وما يراعى فيه من آداب ..

من يتزوج وعلى أي أساس ومن يفضل وماذا يبتغي بزواجه ..

حتى العلاقة الشخصية والخاصة جدًا مع زوجته لها مباحاتها ولها ما لا ينبغي فعله .. بل يهتم هذا الدين بهيئته وترجيل شعره أو عدمه ومتى يكون هذا ومتى يختلف الاهتمام. وهل ينتعل أم لا ..

إنه يحدد طريقة تفكيره .. وأولويات فكره وكيف يرتب حياته ويرتب أولوياته فيها .. وما يريد إنجازها فيها قبل الموت، وكيف يهتم بالأمر .. كما يساعده على تحديد حلمه وأمله وطموحه .. ويعطيه الميزان للناس وللأفعال وللقيم وللأوضاع .. بل فتح له آفاقًا لجهده ونظرة للتاريخ وللواقع وللمستقبل .. بل فتح آفاقًا لتصور ما هي الحياة .. وكيف تكون في حسه .. وما حجمها وهل تنتهي هنا أم لها امتداد أطول وأعمق وأوسع ..؟. هل الموت أحب إليه أم القتل من أجل الله؟ وهل يفر من القتل في سبيله أم يتمناه .. إنه صبغة عامة ..

وإنه مشرب حضاري يحدد ملامح المسلم في باطنه وعقيدته ومشاعره ويحدد ظاهره من سلوك وهيئة ويحدد ملامح الأسرة وعلاقاتها والمجتمع والسلطة والعلاقات بينها .. والعلاقة بين المسلم وبين غير المسلم إن كان محاربًا أم معاهدًا .. والعلاقة بين الأمة وأعدائها ..

عندما يكون الإسلام بهذا الحجم ويكون بهذه الصبغة بحيث يصبح مشربًا حضاريًا ومشروعًا حضاريًا للمسلم وللأمة لتحقيقه ..

هذا المشرب الحضاري وكل هذا الحجم من الأحكام والتوجيهات متوقف على قرار أول يتخذه الإنسان في حياته .. هذا القرار هو لا إله إلا الله .. أي: لن يخضع ويقبل ويتعبد ويحج إلا الله؟ أم لا، ويرفض هذه الكلمة ..

ثم إن قررها فلا يتركها لينتقل لغيرها .. بل ينتقل بها ويؤكد عليها .. لأنها الجذر والقاعدة لهذا البناء الضخم فلا بد من تقوية الجذر جدا وترسيخ القاعدة جدًا ليستطيع أن يقوم بكل هذا ويشربه قلبه بحب .. لأنه منهج ربه الذي انفرد حبه في قلب المسلم وانفردت طاعته له وانفرد تعظيمه وولائه له .. ويكون كل هذا الالتزام هو إعلان عن هوية الشخص الذي يقول لا إله إلا الله .. من أجل هذا كان لا بد من الاستمرار في التذكير والأمر والوصية بالتوحيد ..

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء .. لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة؛ تناسب ضخمتها وامتدادها في

الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها؛ وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا .. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية .. ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا ..

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته؛ يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها .. ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء، والضارب من جذورها في الأعماق ..

ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه: "لا إله إلا الله"؛ وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة .. واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان .. ويمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلأأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له. وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، أبطلت آيات من القرآن، أو كلمات من رسول الله ﷺ بيننا الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطانها، ودعايتها وإعلامها .. فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات؛ بيننا المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات! (١)

وكلما نظرت إلي أي سورة من سور القرآن خاصة ما كان مكيًا كجملة سورة الأنعام وباقي السور المكية وجدتها كلها تدور حول التوحيد، وتعرضه كل سورة عرضًا خاصًا حتى لكأنها لأول مرة تعرضه، وهذا مما تتميز به هذه السور في هذا الكتاب المبارك (٢).

وإذا نظرت إلي السور المدنية التي تتناول الأحكام التفصيلية وجدتها على نفس النسق الذي سبق تقريره: أنها مبنية على التوحيد ومستصحبة له ومذكورة به ومخاطبة باسمه ومعلقة بشرطه.

فقد وجدنا النص على التوحيد وأدلته وحقوقه ومكملاته (الشرائع) وهو غاية القصص وغاية الإنذار والبشرى وارتباطه بالخلق والإشهاد والمواجهة وهو الوصية.

ومن هنا نفهم عمق كلمة ابن القيم وعمق علمه حينما قال:

«بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

(٢) يراجع الظلال.

فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عن خراج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم^(١).

ولهذا فالتوحيد هو أعظم ما يُبين للناس.

وما من صادق يعرفه ويعرف قيمته إلا أدرك هذا..

يقول شيخ الإسلام: أني ما بينت حقيقة التوحيد ومعناه وأهميته لأحد من العباد والعارفين إلا قالوا: هذا أعظم ما بينته لنا^(٢).

ويقول - رحمه الله - أيضًا: «فدين الله أن يدينه العباد ويدينون له فيعبدونه وحده ويطيعونه وذلك هو الإسلام له فمن ابتغى غير هذا دينًا فلن يقبل منه وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِيكَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمْتُ، فذكر أن الدين عند الله الإسلام بعد إخباره بشهادته وشهادة الملائكة وأولي العلم أنه: لا إله إلا هو.

والإله هو المستحق للعبادة فأما من اعتقد في الله أنه رب كل شيء وخالقه وهو مع هذا يعبد غيره فإنه مشرك بربه متخذ من دونه إلهًا آخر، فليست الإلهية هي الخلق أو القدرة على الخلق أو القدم كما يفسرها هؤلاء المبتدعون في التوحيد من أهل الكلام، إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون في أن الله خالق كل شيء وربهم، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين إنه لا إله إلا هو.

فهذا موضع عظيم جدًا ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون في أمور عظيمة هي شرك بنا في الإسلام لا يحسبونها شركًا، وأدخلوا في التوحيد والإسلام أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافي، وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله.

فأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك، بل التوحيد الذي لا بد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهو توحيد العبادة وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام فإن الإسلام يتضمن أصليين:

أحدهما: الاستسلام لله.

والثاني: أن يكون ذلك له سالمًا فلا يشركه أحد في الإسلام له.

(١) مدارج السالكين ج ٣، صفحة ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) يراجع مجموع الفتاوى.

وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه وسورة "قل يا أيها الكافرون" تفسر ذلك، ولا ريب أن العمل ومقصده مسبوق بالعلم، فلا بد أن يعلم ويشهد أن لا إله إلا الله، وأما التوحيد القولي الذي هو الخبر عن الله ففي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وفيها اسمه الأحد الصمد وكل هذين الاسمين يدل على نقيض مذهب هؤلاء الجهمية كما بيناه في موضعه.

وعباداة الله وحده يدخل فيها كمال المحبة لله وحده وكمال الخوف منه وحده والرجاء له والتوكل عليه وحده والتوكل عليه كما يبين القرآن ذلك في غير موضع، فكل من أصول التوحيد الذي أوجب الله على عباده، وبذلك يكون الدين كله لله كما أمر الله رسله والمؤمنين بالقتال إلى هذه الغاية حيث يقول:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ (١).

* * *

إننا مسلمون.

لكن لا يعني هذا أن نتجاوز التوحيد على أنه أمر قد قرر وانتهينا منه لتدخل في غيره.

فعلى هذا .. لم وصى نبي كريم أبناءه به؟.

ولم خافه خير البرية (٢) بعد محمد؟ ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

بل ولماذا كان خير الخلق ﷺ يسأل الله تعالى كثيراً أن يثبت قلبه على دينه؟ ولماذا كان إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا ومقلب القلوب».

ولماذا قال العلماء: فكلما زاد علم العبد زاد خوفه من النفاق ومن الكفر.

ولماذا قال السلف عن النفاق: ما خافه إلا مؤمن ولا آمنه إلا منافق.

ولماذا كان الراسخون في العلم - وليس مجرد العلماء - هم الذين يخافون الزيف عن أصل الهدى:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨].

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعد إيراد حادثة ذات أنواط وهي حادثة أن بعض الصحابة أسلموا حديثاً "حديثو عهد بإسلام" مروا على شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تبركاً بها فقال بعضهم لرسول الله: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط"، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن من فوائد الحديث: أن قول الجاهل: (التوحيد فهمناه) أن هذا من أعظم مكاييد الشيطان.. وهذا نص كلامه أثناء مناقشته لشبه عباد القبور والأوثان:

«الجواب عن شبهتهم فيما حكاه الله عن بني إسرائيل وفي قصة ذات أنواط ومن الدليل على ذلك - أيضاً: ما حكى الله عن بني إسرائيل - مع إسلامهم وعملهم وصلاتهم - أنهم قالوا موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وقول أناس من الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط فحلف النبي ﷺ أن هذا نظير قول

(١) الفتاوى الكبرى، ج ٦، صفحة ٥٥٩.

(٢) في الحديث: «خير البرية إبراهيم».

بني إسرائيل: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾، ولكن للمشركين شبهة [أخرى] يدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك وكذلك الذين قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا. فالجواب: أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ - لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيهم - لكفروا وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد: أن المسلم - بل العالم - قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه: أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان»^(١).

ويقول الشيخ حمد بن عتيق: «وقال ابن القيم رحمه الله: وبحسب إيمان العبد ومعرفته، يشتد خوفه أن يكون منهم، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم، أن يكونوا منهم. انتهى»^(٢).

فكلما زاد الإيمان، اشتد الخوف من النفاق، وعلى حسب ضعف الإيمان يكون الأمن منه، وأما خوف الكفر فيكفي فيه قول الله تعالى إخباراً عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَجْنَبْتَنِي وَبَيْتِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وهو يدل على شدة خوفه من هذا الأمر، وفي الدعاء المأثور: «اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، وأن أورد إلى أردل العمر»، واعلم أن كون الإنسان يشتد خوفه من الكفر والنفاق ويكثر البحث عن أسبابها ونحو ذلك هو أمر غير التلطف به»^(٣).

وأنواع الشرك كثيرة وهي كما يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وهذا إنما يتبين بالتمثيل والحد لا بالعد»^(٤). وهذا سواء في الشرك الأكبر أو الأصغر.

* * *

ولإيضاح أهمية كل هذا البحث كأهمية عملية - مع قيمة الفهم عن الله تعالى - نلقي نظرة على واقع الأمة المسلمة:

إنَّ بُعد المسلمين اليوم وغياهم عن هذا الدين، والكم الهائل من الفواحش والمنكرات، والإباحية الطاغية والتي يترى عليها أبنائنا في مناهج التعليم المغرّبة عن الدين، وفي وسائل الإعلام المدمرة لما تبقى .. والمجاهرة بمعاداة هذا الدين ..

كل هذا لم يقع لمجرد التسبب في التمسك بالقيام بالأحكام أو بسبب الميوعة في أخذها فقط، ناهيك أن يكون هذا خللاً في السلطة التنفيذية في بلاد المسلمين اليوم، وإنما مع هذا هناك بُعد هام إن لم يعالج فلا خروج من هذه الورطة الكبرى التي ألمت بالمسلمين، ولا خروج من هذا النفق المظلم الذي يزداد سوءاً كل يوم، ويتنظر المسلمون الأسوأ إن لم يعالجوا الأمر الأساسي، وهو بيان معنى الإسلام والتوحيد وحقيقة دين رب العالمين، وأن أفراد الله تعالى بحقوقه الخالصة في النسك والتعبادات، وفي التشريع في جميع مناحي الحياة، سواء في الناحية الفردية: (عبادية أو عادية)، أو في

(١) كشف الشبهات ج ١، ص ٣٥.

(٢) يقصد انتهى كلام ابن القيم والكلام متصل للشيخ حمد.

(٣) الدرر السنية.

(٤) مجموعة التوحيد، ص ٤٦٣.

الناحية الجماعية: (عبادية أو عادية)^(١) .. بيان أن هذا من أصل الدين ومن التوحيد وهو لب الإسلام وأصله وأساسه، ولا نجاة للعبد إلا بهذا.

وهذا البيان المطلوب تعليمه لأمة محمد ﷺ اليوم هو تعليم من أجل الإحياء للأمة، وليس لإصدار أحكام على الخلق، وليس بغرض التدليل على كفر المعاصرين، فهذا ليس مقصوداً، وهو خطأ قطعاً، وكذلك فالتوقف والتكفير في العموم للأمة بدعة، ولكن الشأن مع المبدلين للدين الراضين له والمعلنين لهذا وهم محاربون لله ورسوله ..

إن المنكر الذي يحاربه الدعاة ليتركه الناس تنص القوانين (الأحكام البديلة عن دين الله) أنه مباح، بل وتحرس إباحته، بل وتجرم من يجرمه على الناس وتعاقبه، وهذا نابع من الجريمة الأكبر التي هي ليست مجرد تبديل حكم ما من الأحكام بل النص والتصريح برد الأمر لغير الله تعالى وإعطاء حق التشريع للأمة أو لحزب أو لطبقة أو لشخص .. كل في ميزان الله سواء، وكل في ميزانه جريمة.

فالشأن المطلوب من كل هذا هو بيان كيف يكون الطريق في الإحياء.

ومن أين نبدأ مع أمتنا.

وبيان أن وجوب قبول شريعة الله تعالى وحدها لا يتم إلا برفض ما سواها، وأقل درجات الرفض هو الكره القلبي بإشهاد الله تعالى بالبراءة من هذا التبديل ومن القائمين عليه الذين فرضوه على الناس، ولهذا الكره القلبي دلالة عملية من اعتزال أهل الباطل وعدم مشاركتهم ومشايعتهم على عملية تبديل الدين وفرض شرائع (قوانين) بديلة عن دين الله تعالى تحكم حياة الناس ..

إننا إن لم نربط بين الوعظ للقيام بأمر الله تعالى وبين أصله من قاعدة العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه كما ربط القرآن .. فإذا لم نفهم القرآن ..

وكذلك لم نفهم الواقع الذي ليس هو كواقع المسلمين الذي كانوا عليه لأكثر من عشرة قرون كانت يحدث فيها تسبب في التطبيق فيحتاج المسلمون للتذكير ..

ولكن اليوم الواقع مختلف فإنه يرد الأمر لغير الله ويستنكر أن تحكم الناس شريعة الله تعالى بل ويستخف أو يحارب أو يسخر ..

فلا بد من فهم الواقع المرتبط بين شيوع المحرمات وبين إباحتها، ويربط بين التسبب في الفرائض وبين الإباء من قبول فرضيتها كفریضة عامة على المجتمع، وبين تعطيل الحدود ورفضها .. وهكذا.

وبين كل هذا ورد الأمر إجمالاً لغير الله تعالى، وإهدار اعتبار الشرع جملة بتغيير المصدر المشرع الإلزامي. وليس كل الناس يرضى بهذا بل كثير من الناس يرفض هذا التبديل ولا يستطيع أن يعبر عن هذا الرفض، ولكن المقصود أن هذه ظاهرة يجب معالجتها ولا تعالج إلا بتوضيح حقيقة الواقع وحقيقة دين الله تعالى .. ليكون المسلمون على بينة من أمر دينهم.

* * *

(١) يقصد بالعبادية: العادات والمعاملات.

وما كانت كارثة العراق^(١) إلا بولاء المنتسبين للإسلام للكفار، وهو خلل في التوحيد إما في فهمه وإما في القيام به ممن يدعيه سواء من كانوا من الراضية أم من أهل السنة زورًا ..
وما كارثة فلسطين إلا بـ:

١- غياب الهوية الإسلامية بغياب الولاء الإسلامي باستبداله بالقومية رابطة بديلة وهو خلل في فهم لا إله إلا الله.

٢- مع الخيانة والتواطؤ مع العدو.

٣- غياب الإسلام كشرعية وطريقة ومنهج حياة.

٤- غياب اكتساب القوة.

وما أحداث الصومال إلا ولاء للصليبيين في إثيوبيا والغرب من أجل شهوات ذاتية يدمرون بها أمنهم القليل وأمل أمتهم من أجل ما حقر من الشهوات.

وما وضع السودان إلا تحالفًا مع الوثنيين والشيوعيين الملحدين والصليبيين من أجل تفتيت الأمة هناك تنفيذًا وتواطؤًا مع مخططات غربية وصهيونية.

وسقوط العراق واحتلال أفغانستان لم يكن شيء من هذا إلا بولاء للكافرين أمّن به الكفار على أنفسهم ودّلوا على عورات المسلمين، فأمنوا واجتاحوا أجزاء غالية من أرض المسلمين، وتسلطوا على رقاب أمة محمد ..

والقائم بهذه الجرائم - انتسابًا - مسلمون!.

وما هذا إلا بغياب لـ "لا إله إلا الله" - فهما - أو عدم القيام بها إيثارًا للعاجلة .. وتخاذل الأمة عن امتلاك القوة التي هي فريضة كفائية تأثم الأمة كلها بتضييعها وقد استبيحت أعراضنا وأرضنا ومقدراتنا وديننا بسبب افتقادها ..

وكذلك افتقاد التماسك الاجتماعي والاقتصادي القوي الذي يحفظ الأمة من الداخل، ويمنع العدو من اصطيد أطراف متورة أو طامعة، لتفتيت الأمة واستباحتها .. وكل هذا الضياع بسبب غياب فهم "لا إله إلا الله" ولعدم القيام بها وبحقوقها من الفرائض مثل التي أسلفنا الإشارة إليها ..

والقرآن واضح في أن الولاء حق خالص لله وأن التولي بغير ولاية الإسلام أو ذنبه الولاء وتأرجحه بين المسلمين وعدوهم فضلاً عن انعدام الولاء .. وفضلاً عن المسارعة في ولاء الكفار خشية الدوائر: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۗ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

كل هذا نفاق أعظم وكفر أعظم وردة: ﴿ وَذُؤَالُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۗ ﴾ [النساء: ٨٩].

(١) باحتلاله من قبل الأمريكيين عام ٢٠٠٣م، وقتل أكثر من مليون من أهله وتشريد حوالي ٥ ملايين لاجئ موزعين في داخل العراق وخارجه في جميع أنحاء العالم إلى الآن ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

فمن قرأ القرآن ولم يفهم رسالته هذه فليعد قراءته فقد فاتته أصل الأصول وزبدة الرسالة ولُبُّها. فماذا يفهم إن لم يفهم قضية القرآن الأولى وقضية الخلق الأولى والتي خلُقوا من أجلها؟.

ولا يجوز لأمة تحمل كتاب الله تعالى، ويحمله الكثير من أبنائها في صدورهم، ويتلى عليها آناء الليل وأطراف النهار أن تتسحب من الحياة وأن تُسحق، ثم يقوم يناضل عن قضاياها علمانيون (لا دينيون) يرفضون هذا الكتاب ويسخرون منه ويحاربونه، ويزعمون حراسة مقدراتها فإذا بهم يضيعون أكثر ممن قبلهم وهكذا.. ثم ينتظر المسلمون مآسي أكبر..! وفي المقابل يقعد أصحاب هذا الكتاب..!!

كيف لأمة تحمل هذا الكتاب يكون هذا واقعا؟ هذا لا يجوز، ويجب أن لا يكون، ولا بد من الرجوع إليه فيفهم أولاً وتُفهم قضيته الأولى وقضاياها التي يتناولها.. وأن تُفهم رسالة الله إلى خلقه.. وأن تقوم بها هذه الأمة الحَيَّة..

ومن لم يدرك أهمية ما شرحنا في هذا الفصل فليُنظر إلى الواقع، ومن لم يدرك انطباق القرآن على واقعه فقد فاتته الكثير؛ فإن كل واقع إلى قيام الساعة يدخل تحت خطاب القرآن من باب أن: «لكل قوم وارث»، فكل من ذُكروا في القرآن من مؤمنين أو فجار لهم ورثة في واقعنا يتناولهم الخطاب الرباني وينطبق عليهم؛ ومن ثم تبقى دلالة القرآن والعبرة منه باقية لكل أحد يأخذ بجذو إلى قيام الساعة.. ولنقرأ هذه الكلمات لابن القيم وهو يتحدث عن آية سبأ:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

يقول رحمه الله: «فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاةً وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك ومواداه لمن عقلها والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمري إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً والله المستعان»^(١).

وهذا الذي شرحناه من أمر التوحيد هو أعظم ما يجب على المرء تعلمه، وإلا فلو دخل في الشركيات الصريحة من الشرك الأكبر عاكفاً عليه، وفي ظنه أنه على الجادة والصواب، فإن ظنه لن يغني

عنه شيئاً، وهذا هو الضلال قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]، وهذا يوجب الحذر، ويوجب طلب هذا العلم، وعدم الاستهانة بها شرحنا وأطلنا فيه الكلام.

يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين: «وقد دخل كثير من هذه الأمة في الشرك بالله، والتعلق على ما سواه، ويسمون ذلك: توسلاً وتشفعاً. وتغيير الأسماء لا اعتبار به، ولا تزول حقيقة الشيء ولا حكمه بزوال اسمه وانتقاله في عرف الناس باسم آخر.

فتغيير الأسماء لا يزيل الحقائق، وكذا من ارتكب شيئاً من الأمور الشركية فهو مشرك، وإن سمي ذلك توسلاً وتشفعاً.. وحكم الشيء تابع لحقيقته لا لاسمه، ولا لاعتقاد فاعله..».

ويقول: «من صرف لغير الله شيئاً من أنواع العبادة فقد عبد ذلك الغير، واتخذها إلهاً، وأشركه مع الله في خالص حقه، وإن فرّ من تسمية فعله ذلك تألهاً وعبادة وشركاً.

ومعلوم عند كل عاقل: أن حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها فلو سمي الزنا والربا والخمر بغير أسمائها لم يخرجها تغيير الاسم عن كونها زناً ورباً وخمراً ونحو ذلك.

ومن المعلوم أن الشرك إنما حرم لقبحه في نفسه، وكونه متضمناً مسبة الرب وتنقصه وتشبيهه بالمخلوقين، فلا تزول هذه المفاصد بتغيير اسمه كتسميته: توسلاً وتشفعاً وتعظيماً للصالحين وتوقيراً لهم، ونحو ذلك.

فالمشرك مشرك شاء أم أبى، كما أن الزاني زانٍ شاء أم أبى، والمرابي مرابٍ شاء أم أبى»^(١).

* * *

فأكثر الخلق إنما أتى من الضلال والتقليد وإحسان الظن بمن لا يوثق في دينه.

كذلك ولم تستطع العلمانية أن تستقر في بلاد المسلمين إلا بالتلبيس على المسلمين سواء بتلبيس الواقع باللافات الكاذبة والتستر خلف شعارات احترام الدين بينما حقيقتها رفضه، وتلبيس الدين بتغييب مفاهيمه واللجوء لمفاهيم الإرجاء التي تجعل التوحيد إما: تلفظاً مجرداً، وإما اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق فقط دون أن يعرفوا أن معناها عبادته وطاعته بلا شريك.

ومن هنا فلنقرأ كتاب الله تعالى.. ولنفهم مقصده الأصلي، ورسالته الأولى.. والغاية التي أنزل من أجلها، والتي أرسل من أجلها رسول الله، والتي لها خُلقتنا، ومن أجلها أُنذرتنا، ومن أجلها قص الله علينا القصص.. بل ولها أشارت كل آية في الكتاب العزيز.. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد..

وصلى الله وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد

وعلى آله وصحبه وسلم